بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسَ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : ١] ٠

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ ٠

[الأحزاب : ٧٠ : ٧١]

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ٠

القرآن الكريم أصدق الحديث ، بل هو الصدق المطلق قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] ، فالصدق هو القرآن ، ومن جاء به – سواء كان الرسول ﷺ أو كان جبريل أو كان أصحاب القرآن المؤمنين به – جاء بالصدق ، ومن صدّقه فأولئك هم المتقون ٠

وهو أحسن الحديث قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٣] ولا يكون أحسن الحديث إلا بجمعه الحسن فى المبانى ، إذ هو متشابه يشبه بعضه بعضًا فى بلاغته ونظمه وأساليبه وآياته وكلماته وحروفه ، والحسن فى المعانى فيرقى بالأفهام ويجمل ويفصل ويثنّى فى المعانى فيذكر الليل إلى جانب النهار ، والموت إلى جانب الحياة ، والمتقين إلى جانب الفجّار حتى تكتمل الصورة ،ويبلغ المعنى مبلغًا دقيقًا شافيًا وافيًا ، ولم لا يكون أليس هذا الحديث هدى الله يهدى به من يشاء ؟ بلى ومن يضلل الله فما له من هاد .

وإن نَقُلْ عن القرآن فلن يبلغ قولنا مقال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين » ، بل قال فيما رواه البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وعند الترمذى تفصيل معجب لعظمة هذا الكتاب المعجز ، فيروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم الله وجهه أنه قال :« سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين ، والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ [الجن : ١ ، ٢] ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور » وهذا الحديث رواه الترمذى عن

الحارث الهمذانى ، وقد رماه الشعبى بالكذب – قال القرطبى : وليس بشىء ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما تقم عليه إفراطه فى حب علىّ ، وتفضيله له على غيره » (١) .

ولم لا يكون القرآن أكثر من هذا وهو كلام الله عزّ وجلّ الذى : ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، يقول الشاطبى رحمه الله عن القرآن هو « كلية الشريعة ، وعمدة الملّة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، فلا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشىء يخالفه » (٢) .

وهذه بعض خصائصه ، ومن خصائصه أيضاً « أنه كتاب مبين ، حتى إن منزله – سبحانه – سمّاه نوراً ،وهدى للناس ، وفرقاناً وبرهاناً وبينة ، وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [النساء : ١٧٤] ، وخاطب أهل الكتاب بقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة :١٥,١٦]،وخاطب الرسول المنزل عليه هذا القرآن بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وهدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٣)[النحل : ٨٩]

يقول الشيخ القرضاوى : (ومن نعمة الله أن ليس فى الدنيا كتاب توفرت على فهمه وتفسيره كبار العقول فى مختلف الأعصار والأمصار من شتى الثقافات والمعارف ، مثلما يسرّ الله للقرآن العظيم) (٤) .

وهذا ليس بمستغرب أن تحتفى الأمة بكتابها . وأن تتناوله عقولها الكبيرة بالبحث والدرس والتفسير ، فالكتاب وحى إلهى محفوظ لم تطله يد التحريف ولم تعبث به إرادة التزييف ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

---

(١) انظر : مقدمة تفسير القرطبى ج ١ / ٤ .

(٢) انظر : الموافقات للشاطبى ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٣) انظر : القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ص ١٩٥ .

(٤) المصدر السابق ص ١٩٦ .

لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقد بلغت العقول فى تتبعه مبلغًا يناسب كل عصر ، ولا يزال عطاء القرآن لكل العقول ولكل العصور مهما تقدمت العلوم ، وأبدعت الأفهام ، فإنه لا يخلَق على كثرة الردّ .

ولا زلت أذكر اهتمام شيوخنا بعلوم القرآن ومناظراتهم فى ذلك حتى يترسخ فى ذهنى أن العلماء قالوا كل شىء فيه فأفاجأ بجديد لم أقرأه تسمعه أذنى من مثل سؤال بعضهم عن الآية التى جمعت حروف الهجاء فيجيب الآخر إنها الآية ١٥٤ من سورة آل عمران وعن ربع الحزب الذى خلا من حرف الشين فيأتى الجواب إنه ربع : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً .. ﴾ فى سورة التوبة : ٤٦ وغير ذلك مما يدل على حفاوة الأمة ، بعلمائها وحفّاظها ، بالقرآن الكريم شكلاً وموضوعًا .

وقد يسرّ الله لى قراءة كثير من تفاسير السلف والخلف فوجدت لكل تفسير ميزته التى يمتاز بها عن غيره يستوى فى ذلك التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى ، والقرآن يعطى مفسره على قدر إخلاصه لله عزّ وجلّ وصدقه مع الله ،ولا يكاد يخلوكتاب من كتب التفسير من إضافة يضيفها ، إنْ فى العرض ، وإنّ فى السرد ، وإنْ فى الغوص مع المعانى ، وإنْ فى الاستنباط ، يستوى فى ذلك المأثور والرأى ، والموضعى والموضوعى ، والسلفى والخلفى وهكذا .. ولهذا أحب دائمًا أن أستمع لكل مفسر لثقتى أنه لن يعدم جديدًا يأتى به ، وقد دفعنى هذا الحب وتلك الرغبة إلى تتبع القرضاوى مفسرًا .

أولاً : فى كتبه وقد شاع الكلام عن القرآن فيها ، ولا يخلو كتاب من كتبه من إشارة أو عبارة يتحدث فيها عن القرآن ، بل إنه خصص بعض دراساته للحديث عن القرآن كما نرى ذلك فى كتابه « الصبر فى القرآن الكريم » وكتاب « كيف نتعامل مع القرآن الكريم » ، وبعض الفصول والأبواب فى كتبه التى بلغت الستّين أو زادت ، فالرجل ليس غريبًا عن القرآن بل إنه – كما قال لى فى بعض اللقاءات – ابن القرآن ، حفظه صغيرًا وتوفّر على فهمه وقراءته كبيرًا ، والذى يسمع الشيخ القرضاوى يتلو القرآن يجزم بحب هذا الرجل للقرآن وصدق عاطفته فى التعبد به لله عزّ وجلّ .

ومع هذا فالشيخ على أستاذيته وسبقه وعلو كعبه فى العلم بين المعاصرين له لم يؤلف فى التفسير ولم يكتب بما تعارف عليه المفسرون ، فكانت دروسه فى التفسير تلك هى الأثر الذى خلّفه ، أمدّ الله فى عمره وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ولعل الله تعالى أن ييسِّر لنا دراسة الرجل دراسة وافية شاملة تبين إمامته وفضله الذى لا يغيب عن قاصٍ ولا دانٍ .

ثانيا : فى دروسه وخطبه ومحاضراته ، والشيخ القرضاوى ملء السمع والبصر إذا درّس أو خطب أو حاضر ، ولقد عايشت دروسه فى التراويح التى كان يعلق فيها على بعض آيات القرآن وسوره طيلة عشر سنوات منذ وطئت قدماى أرض قطر ، ولا يزال علاَّمَتُنَا مستمرًا فى ذلك لا ينقطع ولا يتخلف[1] ، ومن خلال هذه المعايشة تبيّن لى منهج الرجل الثابت فى التعامل مع القرآن الكريم الذى يقوم على النظرة المعتدلة والشاملة ، ويبتعد عن الإفراط والتفريط ، ويربط الآيات بعضها ببعض ، ويتتبع اللفظة فى القرآن فيذكر معانيها ، وهذا يلاحظه القارىء فيما يأتى من تفسير سورة الرعد ، وقد أحصيت من خلال الهوامش الآيات التى استشهد بها الشيخ فى تفسيره لسورة الرعد فوجدتها تزيد عن ألف ومائة وستّين آية بعضها مكرر وكثير منها غيرمكرر فإذا علمنا أن عدد آيات سورة الرعد بضع وأربعون آية وأن القرآن كله ستة آلاف وستمائة وست عشرة آية [2] تبيّن لنا اهتمام مفسرنا بتفسير القرآن بالقرآن إلى جانب السنة التى استشهد منها بما يزيد عن ثمانين حديثًا ، وإلى جانب أقوال الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء وكثير من الظواهر والنظريات العلمية الكونية الحديثة مما يصدّق قوله فى مقدمة التفسير عن منهجه فى التفسير « إنه تفسير يأخذ من المأثور ويستخدم الرأى ، تفسير يجمع بين الرواية والدراية ، بين العقل والنقل ، بين الأصالة والمعاصرة ، يهتدى بتفسير السلف ولكنه يمحص ويرجح ، وليس أسيرًا

---

(١) وقد بدأها منذ سنة ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م منذ وصل إلى قطر ، وبدأ بها صلاة التراويح .

(٢) انظر صديق بن حسن القنوجى فى كتابه أبجد العلوم ج ٢ ص ٥٠٠ ط دار الكتب العلمية .

لأحد ، ولا مقلداً لأحد ، يستفيد من كل التفاسير الماضية ، ولكنه لا يخوض فى اللغويات بحيث يخرج القرآن عن مقصده وعن هدايته ، بل يهتم بإبراز مقاصد القرآن وهداية القرآن وعظمة القرآن وروعة القرآن ، وهو تفسير تحليلى وموضوعى يتتبع كلمات النص القرآنى ويحللها ويعايشها ، ويتتبع المعنى فى القرآن الكريم .. » .

من أجل ذلك كنت حريصاً على متابعة دروس التفسير ، ووجدت فيها من الجديد الذي يمكن أن يضاف إلى مكتبته خاصة وإلى المكتبة الإسلامية عامة ، فكان هذا الجهد المتواضع الذى أسأل الله تعالى أن يتقبله وأن يكتب لنا أجره وأن يغفر لى به ولوالدى ولشيخى ولقارىء هذا الكتاب وناشره ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على سيدى رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

الدوحة في يوم السبت ١٧ جمادى الأولى ١٤١٥ هـ

٢٢ أكتوبر ١٩٩٤ م

محمود أحمد عوض

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المفسر

للطبعة الأولى

﴿ الْحَمْدُ لله الَّذى أَنزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذرَ بَأْسًا شَديدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمنينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحَات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًآ * مَّاكثينَ فيه أَبَدًا ﴾ [الكهف : ١ - ٣] .

والصلاة والسلام على من أُنزل عليه الكتاب ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ، وعلى من دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد :

فمنذ سنوات وأنا ألقى درس الإثنين بعد صلاة العشاء بمسجد عمر بن الخطاب بمدينة الدوحة عاصمة دولة قطر، وكان هذا الدرس حرًّا ، أتنقل به من علم إلى علم حسب المقام ، فحينًا يكون فى العقيدة ،وتارة فى الأخلاق أو فى التربية ، وطورًا فى الفقه أو فى الاقتصاد ، وآخر فى التفسير أو فى الحديث أو فى السيرة ، وأحيانًا أخرى فى الدعوة والفكر وواقع الأمة بين كيد أعدائها وغفلة أبنائها .

ثم اقترح علىّ بعض الإخوة المواظبين على الحضور خلال السنة الدراسية ١٩٩١ - ١٩٩٢ م أن أتناول سلسلة محددّة فى موضوع معين ، بحيث تسجل فى أشرطة كما هو المعتاد ، وتفرّغ وتنشر على الناس ، فينتفعوا بها مقروءة ، كما انتفعوا بها مسموعة .

وكان من المقترحات المطروحة أن أبدأ دروسًا فى (تفسير القرآن الكريم) تكون خدمة لكتاب الله عزّ وجلّ ، وتربط المسلمين به علمًا وعملاً ودعوة

وجهاداً ، والقرآن هو أساس الوجود الإسلامى كله ، وهو ينبوع العقيدة ، وكلّية الشريعة ، وعمدة الملّة والسّنّة إنما هى مبيّنته وشارحته .

وقد لاقي هذا المقترح هوًى فى نفسى ، فأنا ابن القرآن وربيبه ، منذ أتممت حفظه وتجويده وأنا دون العاشرة ، وقد كان لي وقفات مع كثير من آياته فى دروس التراويح فى رمضان لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً قضيتها في قطر ، أصلى فيها التراويح ثمانى ركعات غير الشفع والوتر ، وأتلو فيها (جزءاً) من أجزاء القرآن الثلاثين ، وبعد الركعات الأربع الأولى تكون ترويحة ألقى فيها درساً ، فيما يفتح الله به علىّ من أسرار آيات كتابه العزيز .

وقد كنت فى السنة الدراسية السابقة (١٩٩٠ – ١٩٩١ م) معاراً من دولة قطر إلى جمهورية الجزائر الشقيقة ، بناء على طلب من الرئيس الجزائرى الأسبق الشاذلى بن جـديد ، وموافقة من أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى ، لرئاسة المجلس العلمى لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية فى مدينة قسطنطينة ، والتعاون مع وزارة الشؤون الدينية التى كان يرأسها صديقنا الدكتور سعيد شيبان ، وكان مما طلبه منى الإخوة فى الجزائر ، أن أقوم بدرس أسبوعى فى التفسير فى أحد المساجد الكبيرة بالعاصمة ، واقترحوا علىّ أن أبدأ (بسورة يوسف) رحبت بذلك ، وشرعت بالفعل فى هذا الدرس الذى كان يشهده الآلاف ويسجل مسموعاً ومرئيًّا ، واستمر طوال تلك السنة الدراسية وإن لم يقدّر لى إكمال السورة .

ولهذا حين اقترح بعض الإخوة فى الدوحة أن أبدأ من (سورة الرعد) انشرح لذلك صدرى ، لتكون استكمالاً لما بدأت به في الجزائر من ناحية ، وتحقيقاً لرغبة قديمة من عدد من المحبّين كانوا قد طلبوا إلى أن أكمل (تفسير المنار) للعلامة المجدد السيد / محمد رشيد رضا رحمه الله وجزاه عن الإسلام والقرآن خيراً .

ومن هؤلاء العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية فى قطر ، الذى رغب إلىّ فى ذلك بعد وصولى إلى قطر بنحو ثلاث أو أربع

سنوات ، وقال سنوفر لك كل ما يعينك على أداء هذه المهمة ، ولكنّى تهيبت هذا الأمر ، ولم أجد الشجاعة ولا النية للإقدام عليه .

وبعد ذلك بسنوات عندما زرت مدينة (مسقط) عاصمة سلطنة عمان ، وسعدت بلقاء علّامتها الشيخ أحمد محمد الخليلى مفتى السلطنة ، كان مما اقترحه علىّ أن أتمم تفسير المنار على طريقة الشيخ رشيد ، ولكن لم يقدر لى التجاوب مع هذه الرغبات المخلصة .

فلا غرو أن أستجيب لهذا الاقتراح الجديد القديم ولا أزعم أننى أكمل تفسير المنار بهذا التفسير وذلك لعدة أسباب :

(**أولها**) أن هذا التفسير مرتجل ، وليس مكتوبًا محررًا . ولغة الارتجال لا ترقى إلى لغة الكتابة المحررة المدققة .

(**ثانيها**) أن الشيخ رشيد هو شيخى وأستاذى الذى أحببته وقدّرته من قديم ، والتلميذ لا يبلغ مبلغ شيخه ، وقد قيل : الفضل للمبتدى وإن أحسن المقتدى .

(**ثالثها**) أن لكل شيخ طريقته ، وأنا لا أُحسن التقليد ، ولم أحاول فى حياتى أن أكون نسخة من أحد ، فأنا متأثر بصاحب المنار ، ومعجب به ، ومستفيد منه ، ولكنى لست إيّاه .

(**رابعها**) أن السيد رشيد بدأ هذا التفسير وهو شاب واستمر خمسًا وثلاثين سنة يكتبه شهريًا يصدّر به مجلته الشهيرة (المنار) ، ومع هذا لم يكمل إلا اثنى عشر جزءاً من القرآن ، فكيف أطمع أن أكمل هذا العمل الجليل ، وقد تجاوزت منتصف العقد السابع من العمر ؟؟ .

لهذا قدّمت هذه الدروس فى التفسير على طريقتى الخاصة مستفيداً من علوم السلف ، ومعارف الخلف ، وثقافة العصر ، دون محاولة منّى أن أفرض على كتاب الله ما يأباه ،وقد بيّنت منهجى فى التفسير والأسس التى قام عليها فى المقدمة بالتفصيل فليراجعها من أراد .

وما كان لهذه الدروس أن ترى النّور مقروءة فى كتاب ، لولا فضل الله

تعالى وتوفيقه أولاً ، ثم جهد الأخ الكريم ، الصحفى المسلم اللامع الأستاذ محمود عوض ، الذى قام متطوعاً مختاراً بتسجيل هذه الدروس على أشرطة (الكاسيت) ثم قام بإفراغها على الورق ، وضبطها وعلق عليها تعليقات مفيدة تدل على مدى علمه وفضله .

وقد نشرها أولاً بصحيفة (العرب) القطرية فى حلقات ، وها هو اليوم يعدها للنشر فى كتاب ، بعد أن عرضها علىّ وأجزتها بعد قليل جداً من التنقيح والإضافة .

جزى الله أخى الحبيب محمود عوض عنّى وعن العلم وعن القرآن خير ما يجزى به العاملين الذين أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينهم ، وأرجو أن يكون منهم .

كما أدعوا الله تعالى أن يكون فى هذه الدروس ما ينفع المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وما يأخذ بأيديهم فى عصر محنتهم ، ويهديهم سواء السبيل ، وأن يغفر لنا ما زلّ فيه القلم ، أو شرد فيه الفكر عن الصواب : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦].

الدوحة فى يوم السبت ٢٦ ربيع الثانى ١٤١٥ هـ

١ أكتوبر ١٩٩٤ م

الفقير إلى عفو مولاه

يوسف القرضاوى

* * *

بين يدى التفسير

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا وإمامنا محمداً عبد الله ورسوله أرسله ربه ﴿ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] ، أنزل عليه الكتاب : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلَ لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : ١] .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد :

فنبدأ باسم الله وعلى بركة الله دروسنا فى تفسير كتاب الله عز وجل ونرجو أن يعيننا الله تبارك وتعالى وأن يمدنا بتوفيقه لتستمر هذه الدروس ، وقد طلب إلى بعض الأخوة من قديم أن أبدأ من حيث انتهى العلاَّمة المجدد السيد رشيد رضا [١] رحمه الله وتقبله فى الصالحين والعلماء العاملين ، صاحب المنار حيث

---

(١) محمد رشيد ين على رضا بن محمد بن شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا على خليفة القلمونى البغدادى الأصل ، الحسينى النسب ، صاحب مجلة « المنار » وأحد رجال الإصلاح الإسلامى ، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير ، ولد ونشأ فى القلمون (من أعمال طرابلس الشام) عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وتعلم فيها وفى طرابلس ، وتنسك ونظم الشعر فى صباه وكتب فى بعض الصحف ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له ، وأصبح مرجع الفتيا فى التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة ، ولما أعلن الدستور العثمانى (١٣٢٦ هـ) زار بلاد الشام ، ثم عاد إلى مصر وأنشأ مدرسة « الدعوة والإرشاد » ثم قصد سورية فى أيام الملك فيصل بن الحسين ، وانتخب رئيساً للمؤتمر السورى فيها ، وغادرها على إثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠ م فأقام فى وطنه الثانى مصر مدة ، ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا ، وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفى عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، أشهر آثاره مجلة « المنار » أصدر منها ٣٤ مجلداً ، و « تفسير القرآن الكريم » اثنا عشر مجلداً منه إلى آخر سورة يوسف ولم يكمله .

انتهى فى التفسير من سورة يوسف ، وكنت فى العام الماضى حينما كنت فى الجزائر [1] قد بدأت التفسير بسورة يوسف وإن لم أتمها ، وأرجو الآن أن أبدأ بسورة الرعد .

ولكنى أحب قبل أن أبدأ فى التفسير مباشرة أن أقدم – على طريقة علمائنا من أهل التفسير – بعض المقدمات التى يحسن أن تكون فى مقدمة أى تفسير .

نحن المسلمين أكرمنا الله تبارك وتعالى بما لم يكرم به أمة قبلنا وليس هناك أمة بعدنا ، أكرمنا الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن ، ونحن المسلمين وحدنا الذين نملك هذه الوثيقة السماوية الإلَهية التى تتضمن كلمات الله تبارك وتعالى الأخيرة للبشرية ، كلمات الله التى لم تشبها شائبة ، ولم يدخل عليها باطل من باطل الإنسان ، ومن أهواء الإنسان وأوهامه وقصوره وأخطائه .وصدق الله العظيم حينما قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، فنحن عندنا هذا القرآن المحفوظ فى الصدور ، المدَّون فى المصاحف ، المتلو بالألسنة ، المتعبد بتلاوته ، نقرأه كما أنزل على محمد ﷺ لم ينقص منه سطر ولا كلمة ولا حرف ، نقرأه بغنّه ومدّه [2] ، وحركاته وسكناته ، كما كان يقرأه النبى ﷺ والصحابة من بعده ، وكما تلقته أجيال الأمة عنهم جيلاً بعد جيل ، حتى كتابته بالرسم العثمانى [3] بقيت كما هى ، مع زيادة فى النقط والشكل .

فالقرآن هو كتاب الله الذى ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، تميز بأنه كتاب الخلود ، كتاب الزمن كله ، ليس كتاب عصر من

---

(١) انتدب الشيخ القرضاوى للإشراف العلمى على الجامعة الإسلامية فى الجزائر لمدة عام واحد سنة ١٤١١ هـ الموافق : ١٩٩٠ و ١٩٩١ م .

(٢) يعنى أحكام التجويد من الإظهار والإخفاء والإدغام والغن والمد وغيرها مما يعرف عند المتخصصين فى علوم القرآن وأهل الأداء (القرَّاء) .

(٣) نسبة إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى أحرق المصاحف المتعددة وأبقى منها مصحفاً واحداً برسم واحد هو الرسم العثمانى ، سمى المصحف الإمام ، وجعل منه ست نسخ أرسل منها إلى الأمصار ، وليست نسبته إلى الخطاط الحافظ عثمان التركى الذى نسخ المصحف بخطه كما قد يتوهم .

العصور ، ولا كتاب جيل دون جيل ، ولهذا لم يستحفظه الله المسلمين ، كما استحفظ التوراة أهلها ، إنما هو سبحانه الذى حفظه ، إذ ليس هناك كتاب بعد القرآن فلو حرِّف القرآن لن يأتى بعده كتاب آخر يهيمن عليه ويصحح له وليس هناك نبى بعد محمد ﷺ وليس هناك رسالة بعد الإسلام وليس هناك أمة بعد هذه الأمة .

ولذلك ضمن الله وتكفل بحفظه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، والجملة الاسمية كما يقول البلاغيون إنها مؤكدة أكثر من الجملة الفعلية ، فإذا دخلت عليها إن وهى حرف تأكيد كان ذلك أكثر تأكيداً ، فإذا جاء الخبر مقروناً بلام التأكيد ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فهذا زيادة فى المؤكدات التى جاء بعضها وراء بعض لتدل على مدى الحفظ الإلهى ، فالقرآن كتاب محفوظ ، كتاب خالد . ولهذا هيأ الله له أسباب التواتر منذ عهد البعثة إلى اليوم ،ولا يوجد كتاب فى الدنيا يحفظه الألوف وعشرات الألوف غير القرآن الكريم .

بل إن الصبيان عندنا يحفظونه ، على عكس ما يوجد عند أهل الكتاب ، إذ لا يوجد عندهم من يحفظ الكتاب المقدس ولا نصفه ولا ربعه ولا خمسه ولا عشره ، لا على مستوى القسيسين والكرادلة والأساقفة فحسب بل على كل المستويات الأعلى والأدنى ، ولعلكم سمعتم وقرأتم عن صبية حفظوا القرآن ، وأطفال دون السابعة حفظوه (١) وقرى بأكملها يحفظ أهلها القرآن (٢) .

---

(١) حفظ الشيخ يوسف القرضاوى القرآن الكريم كله وهو دون العاشرة ،وحفظه بعض الصبية من أبناء المسلمين وهم دون السابعة ، وقد احتفل مند سنوات فى مصر بالطفل محمود سلاّم مطاوع من قرية سجين مركز قطور محافظة الغربية الذى حفظ القرآن الكريم وأتقنه وهو دون السابعة .

(٢) احتفل فى مصر هذه الأيام بقرية كاملة يحفظ أهلها القرآن الكريم ، هذه القرية هى قرية (أويش الحجر) وغيرها كثير من القرى التى لم تعرف إلاّ فى بلاد المسلمين .

وأعجب من هذا أن تجد من غير العرب من يحفظ القرآن وهو لا يكاد يعرف كلمة واحدة فى اللغة العربية ، وقد اختبرت بعضهم بنفسى ، وكنت آتيهم بالمشتبهات من الآيات فلا يلحنون ولا يسقطون كلمة ،ولا يخرمون حرفًا كأنهم أجهزة تسجيل ومنهم من أبناء باكستان وبنجلاديش وبورما ولو سألت أحدهم ما اسمك ؟ لا يعرف معناها ؛ لأنه لا يعرف العربية ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

والقرآن الكريم هو كتاب الإسلام ، فهو المصدر الأول لهذا الدين يؤخذ منه أول ما يؤخذ ، قواعد الدين ومقاصده وكلياته ، وتأتى السنة المصدر الثانى لتبين وتفسر ولكن الأساس فى كتاب الله عز وجل ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لَكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] لكل شىء فى أمور الدين أما أمور الدنيا فقد تركت لنا وبحسب القرآن أن يشير إلى ما يهدى إليها فنحن أعلم بأمور دنيانا (١) ، أما كليات الدين وقواعده ومبادئه وأساسياته فهى فى القرآن الكريم .

ومن خصائص القرآن الكريم أيضًا أنه كتاب ميسر قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ من مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٤٠] وقال عز وجل : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨] ، فهو ميسر للفهم ، وميسر للحفظ ، لأنه كتاب مبين ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف : ١ ، الشعراء والقصص : ٢] فهو بيِّن فى نفسه ، مبين للحقائق ، كاشف للناس عمَّا يوصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ومن خصائصه أنه كتاب معجز ، هو معجزة محمد ﷺ الكبرى وآيته العظمى .

لم يتحدّ النبى ﷺ بأى آية من الآيات مع أن الله سبحانه وتعالى أظهر على

(١) إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها وعن ثابت وعن أنس رضى الله عنهما فى كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا ، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأى ، والحديث طويل جاء فيه : « قال أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

يديه من الآيات والخوارق الكونية أكثر مما أظهر على أيدى الأنبياء والرسل السابقين .

آيات كثيرة ألفت فيها كتب تسمى (دلائل النبوة) عن الآيات والمعجزات والخوارق للعادات والإنباء عن الغيوب ، كتكثير الطعام القليل بين يديه ، وتفجير الماء من بين أصابعه ، وحنين الجذع إليه ، وتسبيح الحصى بين يديه ﷺ ، وانشقاق القمر له ، والإسراء والمعراج وأشياء كثيرة جدًّا ، ومع هذا لم يتحدّ إلا بالقرآن ، فهو الآية التى تحدى بها العرب أن يأتوا بمثله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤] أو بعشر سور مثله : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : ١٣] أو بسورة من مثله ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] تحداهم وقال إنكم لن تفعلوا ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] فغلبوا وانقطعوا وحقت عليهم كلمة الله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

هذا هو القرآن الكريم الذى أكرم الله به أمة الإسلام وأعطاها هذا الدستور الخالد ، وهذا المنهاج الشامل الذى أخرجها من الظلمات إلى النور ، والذى كان حبل النجاة للعرب ، فأخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان ومن الفوضى إلى النظام ، ومن الجهل إلى العلم ومن البداوة إلى الحضارة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

هذا الكتاب فسره المسلمون وخدموه كلٌّ فى مجال اختصاصه ، فمنهم من خدمه بالحفظ ومنهم من خدمه بالكتابة ، ومنهم من خدمه بالقراءة ، ومنهم من خدمه بالتفسير ، ومنهم من خدمه باستنباط الأحكام من آياته وذلك منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا .

وقد يسأل سائل لقد قلت إن القرآن كتاب مبين وكتاب ميسر للفهم والذكر فلماذا احتاج إلى تفسير ؟ ..

أقول احتاج القرآن إلى تفسير لأن الكلام البليغ الذى يوجز المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة يحتاج إلى أن يفسر ويشرح للناس ، حتى يكتشفوا ما وراء كلماته من كنوز المعرفة والحقائق ، ثم هناك ألفاظ قد تخفى معانيها على الناس وهو ما يعرف بعلم غريب القرآن (١) وهناك أشياء قد يفهمها الناس على غير وجهها كمن يأخذ المجاز على أنه حقيقة ، كما يروى عن عدى بن حاتم الطائي أنه فهم من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] أنهما خيطان على الحقيقة ، وجاء بخيطين أحدهما أبيض والآخر أسود ووضعهما على وسادته ، ومضى ينظر فلا يتبين له الخيط الأبيض من الأسود ، فلما كان النهار ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ : (إنما هما بياض النهار وسواد الليل) (٢) وبينَّ له أن الأمر على المجاز .

ومنهم من يفهم من اللفظ العموم ، والمراد به الخصوص ، كما يروى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم فهموا من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] عموم الظلم ومنه ظلم النفس بالمعصية ، ومن ذا الذى يُعْصَم من المعصيــة ؟! فقالوا

---

(١) للقرآن علوم كثيرة صنّف فيها العلماء من السلف والخلف كثيراً من الكتب ، ومن هذه العلوم علم غريب القرآن وهو وإن كان مذكوراً فى كتب اللغة إلا أن بعض العلماء أفردوه بالتصنيف منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد العزيزى وهذا أشهرها ، قيل أقام العزيزى فى تأليف غريب القرآن خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه زبو بكر بن الأنبارى ،ومن أحسنها مفردات الراغب ولأبى حيان مختصر فى ذلك .. انظر أبجد العلوم الجزء الثانى ص ٥٠٢ لمؤفه صديق القنوجى .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصــوم باب قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُم .. ﴾ ولفظ البخارى (إنما سواد الليل وبياض النهار) ورواه مسلم فى كتاب الصيام باب بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر ورواه غيرهما .

رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟! .. فقال ﷺ : أما سمعتم قول العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) وهو من كلام لقمان لابنه ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

فبين لهم أن الظلم المقصود فى الآية ليس أى ظلم كما يفيد اللفظ . لأنه نكرة فى سياق النفى فهي تعم ، ولكن المقصود ظلم معين بينته الآية الأخرى وهو الشرك .

ومن تأمل فى الآية حق التأمل عرف أن الظلم فى الآية فعلاً يعنى : الشرك لأنها تعلق على موقف إبراهيم عليه السلام حينما خوفوه بأصنامهم أن تكيد له أو تنزل به الضرر فقال من الذى يخاف من الآخر ؟ أنا أخاف الأصنام أم أنتم الذين ينبغى أن تخافوا الله سبحانه وتعالى ؟! ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِه عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١ ، ٨٢] أى لم يخلطوا ولم يشوبوا توحيدهم بشرك فالمقام يقتضى هذا ، فإذا كان الصحابة قد اشتبه عليهم بعض الآيات وفهموها على غير وجهها ، فحرى بمن كان بعدهم أن يحدث له هذا .

ثم إن هذا القرآن مليء بالأسرار ، حافل بالحقائق التى قد تظهر لبعض الناس دون بعض ، وتظهر فى بعض الأزمنة دون بعض ، ولهذا ورد فى حديث الترمذى أنه (لا تنقضى عجائبه) (٢) ، ومن أجل هذا دعا النبى ﷺ لابن عمه عبد الله ابن عباس فقال : (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) (٣) .

---

(١) الحديث رواه أحمد والبخارى فى كتاب الإيمان وغيره ، وابن أبى حاتم وابن مردويه وانظر ابن كثير فى تفسير الآية ص ١٥٢ ج ٢ ولفظ الإمام أحمد (فقالوا يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه ؟ قال إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » إنما هو الشرك) .

(٢) جزء من حديث طويل رواه الترمذى وقال غريب وإسناده مجهول ، وانظر ص٤ من هذا الكتاب .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الوضوء باب ١٠ من حديث ابن عباس دون قوله (وعلمه التأويل) وهذه الزيادة موجودة من رواية أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد ،ورواه أيضاً مسلم فى فضائل الصحابة .

وقد يظهر لواحد مالا يظهر لغيره ، كما قال سيدنا على – كرم الله وجهه – حينما قيل له : هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ قال : لا ، إلا فهماً يؤتاه عبد فى كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة (١) ، وأخرج لهم صحيفة فيها بعض الأحكام .

فالناس تتفاوت فهُومُهم فى الاستنباط من القرآن ، وفى الفهم عن الله ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُم ﴾ [النساء : ٨٣] ، فلا عجب أن يحتاج القرآن إلى تفسير ، وخصوصاً أن الله سبحانه وتعالى أنزل فى القرآن آيات محكمات وآيات متشابهات قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه،وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ، والرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[آل عمران :٧] من أجل هذا كانت هناك آيات تحتاج إلى توضيح وتفسير،وايات تحتاج إلى تجلية وزيادة بيان،ومن أجل هذا احتاج القرآن إلى أن يفسره المسلمون فى كل عصر بما يفتح الله على من تعرض لهذا التفسير ولا شك أن كل عالم يتمنى أن يكون له حظ من خدمة القرآن الكريم،وأحب أن يكون لى حظ من خدمة القرآن العظيم (٢)

---

(١) أخرجه النسائي من رواية أبى جحيفة قال : (سألنا عليًّا فقلنا هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبداً فهما فى كتابه ..) وهو عند البخارى فى كتاب الجهاد ، وفى الديَّات بنحو هذا ولأبى داود والنسائي (فقلنا هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس ؟ قال : لا إلاَّ ما فى كتابى هذا) ، كما رواه مسلم فى كتاب الإيمان ١٣١ ، والترمذى فى الديات والدارمى ومسند أحمد ابن حنبل .

(٢) لفضيلة الدكتور ما يقرب من سبعين كتاباً منها الدراسات الفقهية كالحلال والحرام الذى ترجم إلى أكثر من أربعين لغة و (فقه الزكاة) وهو كتاب جامع فى بابه ومنها ما يتعلق بالسنة ككتابه كيف نتعامل مع السنة وكتابه المنتقى من الترغيب والترهيب وله مباحث فى الإيمانيات والإسلاميات والفكر والاقتصاد والواقع وغيرها وله من المباحث القرآنية كتاب الصبر فى القرآن الكريم ، والعقل والعلم فى القرآن .

وأرجو أن يوفقنى الله إلى هذا ، كما أرجو أن يوفقنى إلى كتابة شىء فى سيرة رسول الله ﷺ .

ومن هنا نحاول أن نعيش مع القرآن وفى رحاب القرآن نتدبره ونتأمله ، وقد أنزله الله تعالى ليُتدبَر كما قال عز وجل : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِه وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب ﴾ [سورة ص : ٢٩] وكما قال أيضاً : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيه اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] وفى سورة محمد وتسمى سورة القتال : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] فنحن نريد أن نتدبر القرآن الكريم ، وما تفسير القرآن إلا رحلة تأمل وتدبر فيه ، وليس معنى هذا التدبر والتفسير أن نترك التراث الهائل الذى ورثناه من التفاسير ونبدأ من الصفر ، فلا يقول بهذا إنسان شمَّ رائحة العلم ، والذى يظن أنه يبدأ من الصفر لا يعرف فى العلم شيئاً ؛ لأننا أمة ورثنا تركة طائلة من العلوم ليست عند أمة من الأمم ، ومنها : علم التفسير الذى بدأ منذ عصر الصحابة الخلفاء الراشدين وعبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وتلاميذهم من بعدهم : مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، والمدرسة المكية ، والمدرسة المدنية ، والمدرسة الكوفية فى التفسير ، وأتباع التابعين إلى من بعدهم .

هذا التراث لابد أن ننتفع به ولابد أن نستفيد من مدارس التفسير كلها : التفسير بالرواية ، والتفسير بالدراية ، أو ما يسمى التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى ، وهناك قواعد لابد أن نسلم بها إذا أردنا أن نفسر كتاب الله عز وجل تفسيراً على منهج سليم .

أولى هذه القواعد أن خير ما يفسر القرآن هو القرآن ، لأن القرآن يصدق بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً كما قرأنا : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيه اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] فما أُجمل فى مكان نجد تفسيره وتفصيله فى مكان آخر وما كان عاماً فى موضع يخصصه موضع آخر ، وما كان مطلقاً فى آية قد تقيده آية أخرى .. وهكذا ، ولهذا لابد لمفسر القرآن أن يكون مستوعباً للقرآن مستحضراً له بحيث يستطيع أن يأتى – فى الموضوع الواحد – بالآيات

المشابهة والآيات المقابلة ولآيات المتممة ، وقد يعين على ذلك فى عصرنا من لم يحفظ القرآن ويعايشه : المعاجم ، مثل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم [1] وإن لم يغن فى كل الأمور فقد يتكرر المعنى بغير اللفظ الواحد .

فالقرآن يفسر القرآن والذى سنّ لنا هذه السنة هو رسول الله ﷺ حينما قال للصحابة – رضوان الله عليهم – أما سمعتم قول العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] [2] وأنت حينما تقرأ فاتحة الكتاب ، وتقرأ فيها : ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] وتتساءل ما المقصود بالعالمين ؟ تجد توضيح ذلك فى آية أخرى فى سورة الشعراء فى حوار موسى مع فرعون ﴿ قَالَ فَرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ : ٢٤] فعلمنا أن العالمين هى السموات والأرض وما بينهما ، فهو رب الكون كله علويه وسفليه ، وحينما تقرأ من فاتحة الكتاب : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] تجد تفسير يوم الدين فى سورة الانفطار : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْدِينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالأَمْرُ يَوْمَئِذ للهِ ﴾ [الانفطار ١٧ ، ١٨ ، ١٩] .

وهكذا فالذى يريد أن يفسر القرآن ينبغى أن يبحث عن المعنى فى سور القرآن المختلفة تقرأ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم ﴾[الفاتحة:٦ ، ٧] فإذا أردت أن تعرف من هم الذين أنعم الله عليهم ؟ تجد آية أخرى فى سورة النساء : ﴿ وَمَن يُطعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] لا ينبغى إذًا لمن يفسر القرآن أن يمسك بآية واحدة ويدع بقية القرآن ، بل ينبغى أن يتتبع اللفظ حينًا وأن يتتبع المعنى حينًا آخر ليعرف موقف القرآن من القضية التى تعنيه .

---

(١) الذى وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ومثل المرشد إلى آيات القرآن ، ودليل الحيران فى الكشف عن آيات القرآن ومثل معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وغير ذلك .

(٢) وتقدم تخريج الحديث .

هناك قوم أخذوا قوله تعالى عن الخمر والميسر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [المائدة : ٩٠] فقالوا : إن القرآن قال فاجتنبوه ولم يقل حرمت عليكم وكأن كلمة فاجتنبوه هذه كلمة هينة ، ولو أنهم تتبعوا كتاب الله لوجدوا أن هذه الكلمة إنما جاءت مقترنة بأعظم الذنوب : بالشرك ، وبالأوثان ، وبالكبائر . يقول الله تعالى:﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّور﴾ [الحج : ٣٠] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ [الزمر : ١٧] ويقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ويقول ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمم ﴾[النجم:٣٢]ويقول:﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٧] فلو نظرت لوجدت أن الكلمة تأتى مع الشرك ومع الأوثان ومع الطاغوت ومع كبائر الإثم ، وهذا هو مورد الكلمة فى القرآن ، ومعنى اجتنب أي اجعل بينك وبين الشيء جانبًا ، فكأنها لم تنه عن اقتراف الذنب أو الإثم فقط بل نهت عن فعله وعن الاقتراب منه فهى تشبه (لا تقربوا) كما فى آيات الزنا قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] فالقرآن لم ينه عن الزنا فقط بل نهى عن الاقتراب منه ، وعن ما يقرب منه ، ويوصل إليه ويساعد عليه ، مثل التبرج والخلوة والقبلة ، إلى غير ذلك .

بعض المستشرقين (١) أمسكوا بعض الآيات وقالوا إن محمداً لم يكن يفكر فى عالمية الدعوة إلا فى المدينة بعد أن استتب له الأمر بعد صلح الحديبية وبدأ يرسل إلى الملوك والأباطرة وكسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس ، وقبل ذلك فى

---

(١) منهم السير وليم ميور ، الذى يقول : « إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى – فرض أنه فكر فيها فقد كانت الفكرة غامضة ، فإن عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب .. » إلى آخر ما قال هو وغيره .. انظر « الدعوة إلى الإسلام » تأليف سيرتوماس . و . أرنولد (SIR THOMAS W . ARNOLD) وترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وغيره ص ٤٩ ، ص ٥٠ طبعة مكتبة النهضة المصرية .

مكة لم يكن يفكر فى عالمية الدعوة ، بل كان يفكر فى عشيرته الأقربين وفى من حول مكة ، واستدلوا على ذلك بقول الله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] وبقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢ ، الشورى : ٧] وهذا فى الحقيقة لون من الاعتساف والتزييف ، لأن الذى يريد أن يعرف الحقيقة لابد له من أن يقرأ القرآن ويعرف ما فيه ، فالقرآن المكى واضح وصريح فى عالمية الدعوة ، قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧ ، التكوير : ٢٧] وقال : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : ٥٢] وهذا ورد فى سور شتى من القرآن الكريم كسورة « ص » وسورة التكوير ، وسورة القلم ، ومثل هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِه لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] وقوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ : ٣٨] وكل هذه الآيات مكية ، والعجيب أن الآيات التى صرّحت بعالمية الدعوة آيات مكية بالإجماع ، وهذا يدل على أن عالمية الدعوة لم تكن أمراً قد خطر لمحمد ﷺ فى المدينة بعد أن استتب له الأمر ، ولكن الصحيح أنه بعد أن صالح محمد ﷺ قريشًا واستتب له الأمر بدأ يفكر فى نشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وقبل ذلك لم تكن الفرصة مواتية لمثل هذا ، بل لم يترك رسول الله ﷺ ليستريح يوماً ما .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فهذا من مراحل الدعوة والرسول ﷺ يقول : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » (١) ، فالإنسان يبدأ أول ما يبدأ بدعوة أهله ودعوة جيرانه ودعوة من حوله ثم يوسع النطاق شيئًا فشيئًا ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ﴾ يعنى بنى عبد مناف

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه فى البخارى فى كتاب الأحكام باب بيع الإمام على الناس أموالهم وضياعهم ، وفى مسلم فى باب الابتداء فى النفقة بالنفس ثم القرابة ، وانظر : اللؤلؤ والمرجان رقم ٥٨١ .

ثم قريشاً ثم بعد ذلك أهل مكة ومن حولها أو ﴿ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، وهذه الحكمة فى التدرج لا تنافي عالمية الدعوة فعلى من يتعرض لقضايا القرآن أن يتتبع اللفظ وأن يتتبع المعنى حتى ينتهى إلى الرأى الصائب السديد .

كتب بعض المفكرين المسلمين كتاباً وأسماه « الظاهرة القرآنية » (١) ذكر فيه أن إخناتون – الفرعون المصرى الذى عرف بالدعوة إلى التوحيد ، وترك الشمس وآلهة المصريين القدماء « رع . وآمون .. وغيرها » ودعا إلى إله واحد وإلى التوحيد – هو فرعون موسى وقال إنه وجد فى تاريخ هذه الدعوة أنها كانت انقلاباً مفاجئاً فى حياته لم يسبقه إرهاصات تدل عليه ، وفى رأيه أن فرعون موسى نجا وبعد نجاته – وكان قد آمن فى اللحظة الأخيرة من حياته – بدأ يدعو إلى التوحيد ، واستدل على ذلك بما جاء فى سورة يونس : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذى آمَنَتْ به بَنُو إِسْرَائيلَ وَأَنَا منَ الْمُسلمينَ * ءَالآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ منَ الْمُفْسدينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنكَ لتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢] فقال : القرآن يقول إن فرعون نجا .

وقد قابلت هذا المفكر وذكرت له ما قاله فى كتابه ، وقلت له إن هذا مخالف لما فى القرآن ، فالقرآن قال : ننجيك ببدنك ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن تظهر جثته ويراها الناس بأعينهم حتى لا يقولوا إن الآلهة قد رفعته إلى السماء أو أنه ذهب إلى أبيه الإله أو نحو ذلك ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ .

أما إيمانه فقد رُفض : ﴿ ءَالآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ منَ الْمُفْسدينَ ﴾ لأن الإيمان الذى يعتد به لابد أن يكون فى حالة الاختيار . أما الإيمان فى حالة الاضطرار فلا يقبل كما جاء فى سورة غافر : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بمَا كُنَّا به مُشْركينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتى قَدْ خَلَتْ فى عبَاده وَخَسرَ هُنَالكَ الْكَافرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] وإيمان

---

(١) كتاب الظاهرة القرآنية لمؤلفه مالك بن نبى المفكر الجزائرى المعروف .

فرعون من هذا النوع المرفوض لأنه جاء حينما أدركه الغرق ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَيْسَت التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ .. ﴾ [النساء : ١٨] فهذه ليست توبة ولا تصلح لكافر أن يؤمن أو لعاص أن يتوب ، ثم إن القرآن يقول عن فرعون : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٣] ويقول أيضاً : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧ ، الزخرف : ٥٥] فهو فى الغرقى الهلكى ، وقد ذمّه القرآن وجعله من أهل النار ، قال تعالى عنه : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُون ﴾ [القصص : ٣٩] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٤١ ، ٤٢] ففرعون يقيناً من أئمة أهل النار ، وأتبعه الله اللعنة فى الدنيا وفى الآخرة فكيف يقال أنه عاد ودعا إلى التوحيد ؟!! فهذا الخطأ لابد أنه جاء من أخذ آية دون النظر إلى الآيات الأخرى فى نفس الموضوع .

فمن المهم جداً كما تقدم لمن يفسر القرآن أن يفسره بالقرآن ، وأن يحرص على ذلك ، ومن المهم فى تفسير القرآن بالقرآن أن يلاحظ السياق الذى وردت فيه الآية أو وردت فيه الجملة أو وردت فيه الفقرة ،ولا يعزل الكلام بعضه عن بعض ، فالكلمة الواحدة قد تكون لها معانى عدة فى القرآن ، والذى يحدد المعنى فى هذا هو السياق .

فمثلاً كلمة « الكتاب » فى القرآن الكريم أحياناً ترد بمعنى القرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢] وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[النحل:٨٩] وقوله : ﴿ إِنَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [النساء : ١٠٥ ، الزمر : ٢] ، وأحياناً ترد كلمة « الكتاب » بمعنى التوراة كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾[الإسراء:٢] وقوله:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾[غافر:٥٣] وأحياناً ترد كلمة « الكتاب » بمعنى التوراة والإنجيل معاً كما فى قوله تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران :

٦٤ ،٦٥، ٧٠ ، ٧١ ، ٩٨ ، ٩٩ وغيرها] وقوله: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] ويراد بكلمة الكتاب أحياناً اللوح المحفوظ الذى كتب الله تعالى فيه مقادير الخلائق كما فى قوله:﴿ كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾[الأحزاب:٦] وقوله : ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ويراد بالكتاب أحياناً الشىء الذى يكتب كما فى قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾[البقرة : ٧٩] ، ويراد به أحياناً مصدر كتب أى الكتابة ، فأنت تقول كتب كتابة وكتاباً،وهووجه فى قوله تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم:﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[آل عمران:٤٨] .

وبعض المفسرين فسر الكتاب فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] بأنه الكتابة أى يخرجهم من الأمية إلى الكتابة .

ويراد بالكتاب أيضاً الكتاب الذى تدوّن فيه أعمال الإنسان ، يقول تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء : ١٣ ، ١٤] ، ويقول : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾[الكهف : ٤٩] .

فكيف عرفنا فى المواضع المتفرقة أن الكتاب هو القرآن ، وهو التوراة ، وهو التوراة والإنجيل معًا ، وهو اللوح المحفوظ ، وغير ذلك ؟ إنه السياق الذى يحدد المعنى ، فنقول إنه بمعنى المكاتبة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور : ٣٣] ،ولذلك لا ينبغى لأحد أن يأخذ آية وحدها ويترك السياق ، وهذا يحدث كثيراً فى التفسير : أن تقطع الآية عن السياق .

فمثلاً كثير من المفسرين [١] قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ [يوسف : ٥٣] إنه من كلام يوسف عليه السلام ، وسياق الآيات يقول : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِه ، قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْه من سُوء ، قَالَت امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِه وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ، إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣] وواضح من هذا السياق أن الكلام كله للمرأة ولا دخل ليوسف فيه ، ومع ذلك قال جمهور المفسرين إن الكلام ليوسف عليه السلام .

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية [٢] على ذلك فى رسالة له كما ذكر ذلك ابن كثير [٣] فى تفسيره ، والحق معه فى هذا فالكلام للمرأة ، وكأنهم استكثروا على المرأة أن تقول هذه الجملة القوية ، مع أن القرآن حكى جملاً فى غاية القوة والبلاغة والحكمة لعدد من النساء ، ومن ذلك ما قالته بلقيس فى تصوير الاستعمار : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤] ، قالت ذلك امرأة وهى تصور الملوك الفاتحين المستعمرين ، الذين إذا دخلوا بلداً أذلوا العباد ، وأفسدوا البلاد ، وكذلك يفعلون ،ومن ذلك ما قالته بنت الشيخ الكبير : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] فوضعت أساس اختيار الرجال للمناصب والأعمال : القوة والأمانة .

فلا عجب أن تقول امرأة العزيز هذه الكلمة التى يؤيدها السياق ، فينبغى

---

(١) الطبرى وابن أبى حاتم ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وغيرهم .. انظر ابن كثير ص ٤٨١ الجزء الثانى .

(٢) انظر « دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية » جمع وتقديم وتحقيق دكتور محمد السيد الجليند ، الجزء الثالث ص ٤٣٣ طبعة دار الأنصار .

(٣) انظر تفسير القرآن لابن كثير الجزء الثانى ص ٤٨١ طبعة مكتبة دار التراث .

ألا نهمل السياق ، ونحن نفسر القرآن مع ما ذكرنا من قواعد وما سوف نذكر إن شاء الله .

لابد لنا إذن أن نقرأ القرآن على أنه كتاب الله إذا أردنا أن نفهمه أو نفسره ، ولابد أن نعى تمامًا أنه الكتاب الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] الكتاب الذى أنزله الله ليصدق بعضه بعضًا فلا اختلاف فيه ولاتناقض : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

ولهذا قلنا إن أول ما يجب على المفسر أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى موضع فصّل فى موضع آخر ، وما أبهم فى مكان بيّن فى آخر ،وما أطلق فى سورة قيّد فى أخرى ، وما عُمم فى آية خصّص فى آية أخرى .. وهكذا فلابد أن يفهم القرآن كله ، لا يؤخذ بعضه ويترك بعضه ، كما فعل بنو إسرائيل الذين قرعهم الله تعالى بقوله ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٨٥] وقد نبه الله تعالى رسول الله ﷺ إلى مثل هذا فقال : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

ومع تفسير القرآن بالقرآن ، وتتبع الألفاظ وتتبع المعانى ، لابد أن نؤيد ذلك بالسنة ، نلجأ إليها إذا لم يكن الأمر واضحا فى القرآن فهى مبينة القرآن وشارحته ، وهى التفسير النظرى والتطبيق العملى لكتاب الله عز وجل ، وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] وليس هناك من هو أعلم بمراد الله ممن أنزل الله تعالى القرآن عليه ، فهو ﷺ أعلم الناس بمراد الله . كان النبى ﷺ قرآنا حيًّا ، يفسر القرآن بقوله وعمله وسلوكه كما قالت عائشة حينما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » (١) .

فلا يستغنى أحد عن الرجوع للسنة لبيان القرآن الكريم ، ومهم جداً فى

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم فى المسافرين ١٣٩ وأبو داود والنسائي وغيرهم ، وانظر ابن كثير عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ فى سورة القلم .

الرجوع إلى السنة التأكد من صحة ما جاء عن النبى ﷺ فليس كل ما ورد فى السنة من التفسير صحيحاً .

ونحن نجد فى كتب الحديث كتاب التفسير كما فى البخارى كتاب تفسير القرآن ، وكما فى مسلم وكتب السنن لأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه يذكر فيه ما ورد عن النبى ﷺ وعن بعض الصحابة ، ولكنه ليس كثيرا وخصوصاً ما صح منه ، فإنه قليل ، وقد جمعه كله الحافظ السيوطى فى كتابه الشهير « الإتقان فى علوم القرآن » .

ومن هنا ينبغى أن نحذر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والواهية مما يذكر أحيانا فى كتب التفسير بالمأثور ، وفى كتب الرقائق ، وكتب الترغيب والترهيب (١) ، من مثل ما يروى فى تفسير كلمة « ويل للمطففين » أو « فويل للمصلين » إنها واد فى جهنم قعره سبعون خريفاً (٢) ، وويل كلمة معناها هلاك وعذاب كانت موجودة فى الجاهلية وموجودة فى الإسلام ،ومثل كلمة « طوبى » التى يروى عنها « طوبى شجرة فى الجنة طولها كذا أو عرضها كذا » (٣) وطوبى مقابل كلمة ويل ، وأشياء غريبة من هذا النوع كما روى فى قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] ، الغى واد فى جهنم صفته كذا (٤) ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٨] آثام واد فى جهنم فيه كذا وكذا (٥) ، ومعروف أن الغى ضد الرشد ، وأن الآثام من الإثم

---

(١) لفضيلة الدكتور يوسف القرضاوى كتاب « المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى » وهو من منشورات مركز بحوث السنة والسيرة الذى يرأسه فضيلته فى الوقت الحاضر بدولة قطر ، قام فيه بانتقاء الصحيح والحسن من أحاديث الترغيب والترهيب للمنذرى واختصر الكتاب بحذف الضعيف والمكرر منه والتعليق عليه بما لابد منه فى أضيق نطاق وفهرسته ، وهو عمل وجهد علمى مشكور .

(٢) رواه أحمد والترمذى وهو من حديث دراج أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣ ، ٤ ، ٥) انظر فى هذه الأحاديث كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى الجزء الرابع كتاب صفة الجنة والنار ص ٤٦٥ وما بعدها ، وانظر المنتقي للقرضاوى الجزء الأول ص ٦٧ من المقدمة .

الذى هو ضد البر ، فالمبدأ إذن الرجوع إلى السنة وإلى ما صح منها على وجه الخصوص مثل ما ورد فى الأحكام « أن الرسول ﷺ بعث معاذ بن جبل إلى اليمن وقال له بم تقضى يا معاذ ؟ فقال : أقضى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو » أى لا أقصر ولا أدخر وسعاً ، فضرب النبى ﷺ على صدره وقال : « الحمد لله الذى وَفَّقَ رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ﷺ » .

وهذا الحديث جيد كما قال الإمام ابن تيمية وابن كثير وابن القيم والذهبى وعدد من الحفاظ ، ودافع عنه ابن القيم دفاعاً مجيداً فى كتابه إعلام الموقعين ، وإن كان ابن حزم رده وتبعه فى عصرنا الشيخ الألبانى ،ولكن الحديث قوّاه وجوّده ورضيه عدد من الأئمة فى العصور الماضية وفى عصرنا (١) .

فإذا كان هذا موقف القاضى والفقيه ، أن يقدم القرآن فإن لم يجد فالسنة فإن لم يجد يجتهد وسعه ، فأولى أن يكون هذا هو موقف من يتعرض لتفسير القرآن .. فإن لم نجد فى السنة ما يبيّن القرآن فهناك الصحابة رضوان الله عليهم ، فإذا ورد عنهم شيء فلابد أن نستقبله بصدر رحب ، لأن للصحابة رضوان الله عليهم فضلاً على غيرهم فى عدة أمور :

أولاً : هم الذين شاهدوا التنزيل ، شاهدوا أسباب النزول وعرفوا متى نزلت هذه السورة ، وهذه الآيات ، وأين نزلت وفيم نزلت ؟ فهم أدرى بذلك من غيرهم ، ولذلك قال العلماء إن من المهم للمفسر أن يعرف أسباب النزول ؛ لأنها تلقى ضوءاً على المعنى ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن معرفة السبب تورث المعرفة بالمسبب .

إن من لا يعرف سبب النزول يمكن أن يقع فى خطأ ، وقد حدث هذا من بعض الصحابة ، ففى معركة من معارك المسلمين مع أعدائهم جاء أحد الشجعان

---

(١) ذكره الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم ٨٨١ وقال منكر وبسط فيه القول وممن خرجوه أبو داود الطيالسى وأحمد والبيهقى والترمذى ، وقال الألبانى إن الحديث يوهم الفصل بين القرآن والسنة .

من المسلمين وألقى بنفسه فى وسط جيش الكفار ، فقال بعض الناس لقد ألقى بنفسه إلى التهلكة والله تعالى يقول : ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، فوقف أبو أيوب الأنصارى يرد على هذا القائل قوله [١] ، يقول ليست الآية كما فهمت ، إنها نزلت فينا معشر الأنصار ، فبعد أن غزونا وجاهدنا قلنا : تركنا أموالنا وزروعنا ونخيلنا ، فلنجلس إلى أموالنا ولنجلس إلى نخيلنا ، ولندع الجهاد فيكفينا ما جاهدنا ، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك وتريهم أن القعود عن الجهاد – فى وقت لازال عود الإسلام فيه طريًّا ولا زالت الجبهات المختلفة تقف بالمرصاد لهذا الدين ، الجبهة الوثنية ، والجبهة اليهودية ، والجبهة النصرانية والبيزنطية ،والجبهة المجوسية المتربصة ، وجبهة المنافقين فى الداخل – تهلكة ، فكيف يفعل الأنصار هذا ؟ ولذلك نزلت الآية ﴿ وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

بيَّن أبو أيوب أن التهلكة هنا هى ترك الجهاد ، وليست المبارزة أو المغامرة فى لقاء الكفار ، فسبب النزول ألقى ضوءاً على معنى الآية ، لهذا حذر المحققون من ترك أسباب النزول وإهمالها .

ومع ما تقدم ينبغى أن نعرف أن ما صح من أسباب النزول قليل ، والعلماء ألفوا فى أسباب النزول مثل الإمام الواحدى ، والحافظ السيوطى وكتابه « لباب النقول فى أسباب النزول » ، ولكن كثيراً مما جاء فى أسباب النزول ليس صحيحاً .

ثم هل ما ورد فى أسباب النزول يعتبر مرفوعاً ؟ هل هو رواية أو هو تفسير ؟ اختلف العلماء هنا ، فإذا قال الصحابى : إن الآية نزلت فى كذا ، هل هذا تأويل وتفسير من الصحابى ؟ أو هو رواية ؟ .

---

(١) الموقعة كانت بين المسلمين والروم والقصة كاملة ذكرها الإمام الواحدى فى كتابه أسباب النزول ص ٣٨ ، ٣٩ طبعة عالم الكتب .

والواقع أن من تتبعها وجد أن بعضها من قبيل الرواية وبعضها من باب التفسير والتأويل ، بمعنى أنه فهم للصحابى فى هذا الأمر ، وقد لا يسلم له غيره بهذا الفهم ، ولذلك يختلفون فى أسباب النزول .

المهم أن من فضائل الصحابة على غيرهم أنهم عرفوا أسباب النزول ، ولذلك كان ابن مسعود يقول : والله ما نزلت آية فى كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيم نزلت ، وكان بعض التابعين يتقى التفسير ويتجنبه ، ويقول : « اتقوا تفسير القرآن فإنما هو الرواية عن الله عز وجل ، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن » أى الصحابة رضوان الله عليهم (١) .

وقد سئل ابن عمر رضى الله عنهما عن الحرورية (أى الخوارج) فقال : « كان يراهم شرار خلق الله ، إنهم جاءوا إلى آيات نزلت فى المشركين فجعلوها فى المسلمين » .

فمن المهم إذن أن نعرف فيم أنزلت الآيات، لأن من لا يعرف أسباب النزول يمكن أن يضل فى الفهم،كما فى قوله تعالى:﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] حيث تعكس كلمة لا جناح عليه الأمر المباح كما يقول الله تعالى: ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِى أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٥] ولكن السعى من واجبات الحج أو من أركانه فى بعض المذاهب فكيف يقال : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ؟ فمن عرف سبب النزول (أن الأنصار كانوا يتحرجون من الطواف بهما لأنه كانت توجد أصنام عند

---

(١) كلام ابن مسعود رواه الشيخان البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضى الله عنهما وانظر اللؤلؤ والمرجان الحديث رقم ١٥٩٩ ، وكلام بعض التابعين روى عن محمد ابن سيرين عن عبيدة السلمانى وروى عن الشعبى عن مسروق ، وقد أورد ابن جرير هذه الروايات فى تفسيره ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر ابن تيمية دقائق التفسير ج ١ ص ٨٦ من مقدمات فهم القرآن .

الصفا والمروة فى أيام الجاهلية ، فالقـــرآن قال : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنَ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ اتضح عنده المعنى .

ومن هنا كان الرجوع إلى الصحابة مهماً ، لأن الصحابة هم الذين عايشوا رسول الله ﷺ وتتلمذوا عليه ، وشاهدوا أسباب تنزيل القرآن ، وعرفوا قرائن الأحوال . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان الصحـــابة – رضوان الله عليهم – أهل اللغة حقًّا ، فهم عرب خلص لم تخالطهم العجمة ولا اللكنة وعربيتهم صافية ، لذلك كانوا أعرف بالقرآن من غيرهم ، لأن غيرهم اختلطوا بالأعاجم ، والقرآن نزل بلسان عربى مبين ، فيعرفه من عرف لغة العرب ، وتمكن منها وتذوقها ، والصحابة تمكـــنوا من اللغة وعرفوها وتذوقوها بالسليقة وبالفطرة ، كما قال ذلك الأعرابى :

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقى أقول فأعرب

ومن مزايا الصحابة أيضًا أنهم كانوا أسلم الناس فطرة ، وأبعدهم عن التكلف والتقعر ، وأقربـــهم إلى الله تعالى ، وأعرفـــهم بالإسلام وبروحه وبمقاصده .

فهذا النور الإلهى الذى استكن فى قلوبهم ، ميزهم على غيرهم ، فهم أفهم الناس للإسلام ، ولا عجب أن يكونوا أفهم الناس للقرآن ، من أجل ذلك كان الصحابة مقدمين على غيرهم ، وهذا إذا لم يختلفوا ، فاتفاقهم حجة ، وإذا جاء القول عن بعضهم ولم يعرف له مخالف كان حجة أيضًا .

أما إذا اختلف الصحابة بعضهم مع بعض فى تفسير القرآن ، أمكن لنا أن نرجح قول بعضهم على بعض بمرجحات مختلفة ، كما قال بعض العلماء « ابن عباس يقدم على غيره » لأن الصحابة أنفسهم كانوا يعتبرونه ترجمان القرآن ، والنبى ﷺ قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » (١) ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يستشيره فى أشياء من القرآن فكان يـبدى من الآراء ما يعجز عنه كبار الصحابة ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد فسَّر ابن عباس

---

(١) تقدم تخريجه .

قول الله تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] فقال : فهم القرآن ومعرفة القرآن .

فالصحابة يتفاوتون ولكن الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود لهم باعٍ طويل فى القرآن ، ولكن ليس معنى هذا أن ما قاله ابن عباس يكون صوابا دائماً ، وليس معنى دعاء الرسول ﷺ له أن يكون معصوماً فى تفسيره ، ولكن معناه أن يلهم الصواب أكثر من غيره .

من أجل هذا نستطيع أن نرجح ما جاء عن الصحابة من أقوال بمرجحات شتى ، منها أن تكون الرواية عن الصحابى صحيحة وليست موضوعة عليه أو ضعيفة أو منكرة ، فكثير مما نسب إلى الصحابة غير صحيح ، وابن عباس نفسه رويت عنه أقوال صحيحة وروايات غير صحيحة فى تفسير القرآن الكريم ، وبعضهم نسب إليه تفسيراً جمع فيه ما روى عنه فى التفسير وأسماه « تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس » ولكن ابن عباس لم يؤلف ، ومثل تفسير مجاهد ولكن مجاهداً أيضاً لم يؤلف ، فلنحذر من الروايات الضعيفة عن الصحابة .

وقد روى عن ابن عباس روايات شتى بعضها أصح من بعض ، وبعضها ضعيف ، وبعضها كان العلماء يسمونه سلسلة الكذب وهى السُدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، فيجب الحذر منها .

فإذا لم نجد عند الصحابة نرجع إلى التابعين تلاميذ الصحابة ، فالتابعى هو الذى تتلمذ على الصحابة وأخذ عنهم ، ولا شك أن للصحابة تلاميذ وخصوصاً علماء التفسير منهم ، كابن عباس رضى الله عنهما وكان من تلاميذه مجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

وهناك مدارس فى تفسير القرآن كالمدرسة المكية والمدرسة المدنية والمدرسة الكوفية واشتهر من التابعين أناس فى تفسير القرآن منهم الحسن البصرى وغيره ، وهؤلاء ولا شك لهم مزية على غيرهم ، فإذا أجمعوا فى التفسير كان إجماعهم حجة ، كما أن إجماعهم حجة فى الفقه والأحكام ، ولكن إذا اختلفوا كان لنا

أن نأخذ بقول من شئنا منهم بأساليب الترجيح المختلفة ، لأن التابعين أخذوا عن الصحابة وهم أهل اللغة فهم أعلم بالتفسير ممن جاء بعدهم ، يقول الإمام ابن تيمية إن اختلافهم فى التفسير قليل (١) وإن كان الذى يقرأ التفاسير لأول وهلة يظن أن الخلاف بينهم شديد وكثير ، ولكن الواقع أن أكثر ما يظنه الناس خلافًا ليس خلافًا ، بل هو تنوع يسميه ابن تيمية اختـلاف تنوع وليس اختلاف تضاد .

فمثلاً حينما يفسرون ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] منهم من يقول هو الإسلام ومنهم من يقول هو القرآن ، ومنهم من يقول هو السنة ، ومنهم من يقول هو سنة الراشدين ، ومنهم من يقول هو سنة أبى بكر وعمر ، ومنهم من يقول هو طريق العبودية لله . أو طاعة الله ورسوله (٢) ، فهل هذه الأقوال متضادة ؟ ليست متضادة ولكنها متنوعة ووجه ذلك أن المفسر أحيانًا يركز على معنى معين ليزكى هذا المعنى فى نفوس تلاميذه فإذا وجد أحدهم غير مهتم بالسنة ذكره بأن الصراط المستقيم هو اتباع السنة أو وجد عنده شيئًا للخلفاء الراشدين ذكره بأن الصراط المستقيم هو اتباع سنن الراشدين ، أو وجد عنده شيئًا تجاه أبى بكر وعمر ذكره باتباع شيخى الإسلام وإمامى الهدى أبى بكر وعمر .. وهكذا، لأن المفسر أيضًا مربٍ يحاول التركيز على معان يجد الناس غافلين عنها .

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله : « كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جدًّا ، وهو وإن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم » كتاب دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية الجزء الأول ص ٤٤ من مقدمات ابن تيمية ط دار الأنصار تحقيق د . محمد السيد الجليند ، ومن المصدر نفسه ص ٤٥ قال ابن تيمية « الخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وخلافهم فى الأحكام أكثر من خلافهم فى التفسير ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد » .

(٢) ذكر ابن كثير هذه الروايات بطرقها عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما عند تفسير قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » من سورة الفاتحة فلينظر ص ٢٧ ، ٢٨ الجزء الأول ط مكتبة دار التراث القاهرة .

ولذلك ينبغى لنا ألا نظن بين تفاسير السلف اختلافًا حين نقرأها ، وقد يوجد هذا الاختلاف ولكنه قليل ، ولتحذر أيضًا الضعيف من الروايات فليس كل ما ورد عن التابعين صحيحًا ..

فإذا لم نجد عند الصحابة والتابعين ما يفسر القرآن ، نفسره بمقتضى اللغة والسياق فالقرآن كتاب عربى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر : ٢٨] ، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] ، فهو يفهم فى ضوء لغة العرب ، وليس كل ما ورد فى التفسير مأثورًا ، وليس كل المأثور مأثورًا ، بمعنى أن بعض ما يسمى بالتفسير بالمأثور هو من باب الرأى والدراية ، وأن بعض ما ورد عن الصحابة والتابعين هو من باب الرأى ولو كان من باب الرواية لما اختلفوا ، ولكنهم اختلفوا فدل هذا على أنهم فسروا برأيهم وفهمهم وتدبرهم ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩] ، وكما قال : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤] .

وهنا قد يسأل سائل : فما معنى الحديث إذن الذى يتوعد من يفسر القرآن برأيه ؟ والذى رواه الترمذى وغيره [١] « **من فسَّر القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار** » .

نقول : الرأى منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم – وهذا أيضًا فى الفقه والاستنباط – فالرأى الذى لا يعتمد على أصل ولا يتبع فيه صاحبه القواعد وإنما يتبع هوى نفسه دون أن يلتزم بمنهج هو الرأى المذموم ، وقد ذكر الإمام الغزالى معنيين للرأى المذموم فى كتابه إحياء علوم الدين [٢] :

المعنى الأول : أن يكون لمن يريد أن يفسر القرآن هوى لشىء معين وميل

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد وعند النسائى فى الكبرى .

(٢) انظر إحياء علوم الدين للغزالى الجزء الأول ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ط دار مصر للطباعة – سعيد جودة السحار .

لفكرة معينة فهو يريد أن يفسر القرآن ليخدم فكرته ويؤيد رأيه ، وهذا يريد أن يكون القرآن تابعاً له فيأخذ بتلابيب النص القرآنى ليؤيد المذهب الذى يعتنقه أو الرأى الذى يتبناه ، وهذا للأسف وجد كثيراً فى الفرق الكلامية وفى المذاهب الفقهية ، وفى الطرق والجماعات الصوفية ، وغير ذلك ، فالمعتزلى يريد أن يجعل القرآن معتزليًّا ، والخارجى يريد أن يجعل القرآن خارجيًّا ، والشيعى يريد أن يجعل القرآن شيعيًّا ، والحنفى والشافعى .. ، وهكذا .

والقرآن لا ينبغى أن يخضع لرأى أحد أو لمذهب أحد أو لمعتقد أحد ، وإنما المعتقدات والآراء والمذاهب والأفكار والمفاهيم هى التى ينبغى أن تخضع كلها للقرآن .

والمعنى الثانى : أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير .

وقد جاء فى الحديث الآخر الذى رواه أصحاب السنن « **من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** » أخطأ لماذا لأنه لم يتبع المنهج السليم فصوابه جاء اعتباطًا ، كالقاضى الذى يقضى على جهل هو فى النار ، « **القضاة ثلاثة : قاض عرف الحق وقضى به فهو فى الجنة ، وقاض عرف الحق وقضى بغيره فهو فى النار ، وقاض قضى على جهل فهو فى النار** » [1] حتى وإن أصاب الحق لأن إصابته الحق جاءت على غير منهج .

ومن ذلك أن يقول أحدهم فى قوله تعالى مثلاً : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] أن الناقة مبصرة باعتبار مبصرة حال من الناقة ، وهو على غير هذا فالمعنى آية مبصرة واضحة للعيان .

ومن ذلك أيضًا أن يفسر آية دون أن يربطها بغيرها من الآيات ، فإذا قرأنا

---

(١) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح كما ذكر الإمام العراقى في الإحياء .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [المزمل : ١٩] أو قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الإنسان : ٢٩] لابد أن نقرأه فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠] أى أن الإنسان إنما يشاء بمشيئة الله ويريد بإرادة الله ، فليحذر من يريد أن يفسر القرآن أن يقع فى مثل هذا .. وهناك أشياء مهمة لمن يريد تفسير القرآن :

أولاً : يجب أن يخلص الإنسان النية لله تبارك وتعالى وأن يتوجه إلى الله ويتضرع إليه أن يلهمه الله تبارك وتعالى الصواب ، ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان يقرأ فى الآية مائة تفسير أو مائة وعشرين تفسيراً ، ولا يهتدى إلى الصواب ويقول :اللهم يا معلم إبراهيم علمنى حتى يلهمه الله تعالى الصواب :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] أى نوراً تفرقون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وبين الهدى والضلال .

أما الذى يقرأ القرآن ونيته مدخولة أو منحرف العقيدة أو معوج السلوك فسوف ينعكس هذا على تفسيره للقرآن والعياذ بالله .

ثانياً : أن يتجرد من كل الأفكار والاعتقادات السابقة ، وأن يكون موقفه موقف المتلقى المستقبل الذى لا يفرض نفسه على القرآن ، ربما صعب على الإنسان أن يتخلص من ذاتيته لأنها جزء من كيانه ولكن عليه أن يحاول .

وبعض الناس يقرأ القرآن وعنده أشياء أخذها من التوراة يريد أن يفرضها على القرآن كالذى قرأ أن حواء هى التى أغرت آدم بالأكل من الشجرة وهذا لا يوجد فى القرآن ولا أثر له فيه ، بل الذى فى القرآن أن آدم هو المسؤول الأول ومن تتبع القرآن عرف ذلك ، فالخطاب لآدم قال تعالى : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[طه:١١٧] وقال :﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ﴾[طه:١١٨] وقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[طه : ١١٥] وقال : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢] وهكذا لكن بعض الناس يهوى النظر فى التوراة والأخذ عنها .

وبعض الناس يقول إن حواء خلقت من ضلع آدم وذلك حينما يقرأ قول الله

فى أول سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] وفى آية سورة الأعراف : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ويقولون منها أى من ضلع آدم وهذا المعنى لا يخطر لمن قرأ القرآن وحده متجرداً ، لأن خلق منها وجعل منها تعنى من جنسها مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١] وهو خطاب لكل الرجال ومثل قوله : ﴿ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] فهل يعنى هذا أن الزوجات خلقن من ضلوع الرجال ؟! لا يعنى هذا ، ولكن يعنى من جنس الرجال يألفنهم ويألفونهن ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥ ، النساء : ٢٥] وحديث رسول الله ﷺ « فإن المرأة خلقت من ضلع » (١) لا يعنى هذا بل يعنى أن النساء لهن طبيعة تحمل الانفعال والعاطفة أكثر من الرجال ، وهذه الطبيعة تعين النساء على الحمل والوضع والإرضاع وما يصحب ذلك من متاعب ..

وهذا أيضاً نتج عن قراءة التوراة ، ومثل ذلك قصة داود كما ترويها سورة ص : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُم ﴾ [سورة ص : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤] ، والاسرائيليات تحكى القصة على أن الخصمين ملكان دخلا على داود وأرادا أن يختبراه ، وأنه أخذ امرأة جاره .. وغير ذلك مما روته التوراة أو شاع فى الاسرائيليات وهى قصة لا يفعلها أراذل الناس فضلاً عن الصالحين والأنبياء والمرسلين .

والقرآن يقول : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وأول الحديث « استوصوا بالنساء خيراً » .

مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ *وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[سورة ص:١٧ ، ١٨ ، ١٩] ، والنبى ﷺ يقول : « **أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا** »(١) ويقول أيضًا : « **ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وإن نبـــى الله داود عليه الســـلام كان يأكل من عمل يده** »(٢) ، هذا النبى العظيم قالوا عنه فى التوراة أشـــياء لا تليق ، ونقل هذا للأسف إلى التفاسير ، والصحيح أن يقال إن داود حكم بمجرد أن سمع أحد الخصمين وقال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾[سورة ص : ٢٤] قبل أن يسمع للطرف الآخر متأثراً فى ذلك بالعاطفة والناس تقول : « إذا جاءك أحد الخصمين وإحدى عينـــيه مخلوعة فلا تقض له ، وانتظر حتى يأتيك الخصم الآخر ، فلعلك ستجد عينيه الاثنتين مخلوعتين » ، وهذا التسرع فى الحكم جعل داود يستغفر ربه وينيب .

والمهم لمن يريد تفسير القرآن ألا يدخل على القرآن وفى دماغه أفكار ورثها من كتب سابقة وأفكار أخذها من الفلسفات القديمة وأشياء أخذها من أفواه الناس وأشياء أخذها من التقاليد وأشياء أتت من هنا وهناك ويريد بهذا الركام كله أن يفرض نفسه على القرآن .

ثالثًا : ينبغى لمن يريد أن يقرأ القرآن ويفهم القرآن أن يقرأ القرآن على أنه كتاب الزمن كله ، وكتاب الحياة كلها ، وكتاب الإنسان كله ، وكتاب الناس كلهم ،وكتاب الحقيقة كلها ، فالقرآن كتاب الزمن كله ، ليس لزمن دون زمن ، ولا لجيل دون جيل ، ولا لعصر دون عصر إنما هو كتاب الخلود . الكتاب الذى تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولذا لا ينبغى أن يقال عند معانيه : إن هذا كان فى عصر الصحابة ، وأصبح الزمن الآن غير الزمن والعصر غير العصر ،وهذا أيضًا ما يجعلنا نتوقف فى مسألة النسخ لأن الأصل بقاء النص الإلهى ، فلا يجوز أن نلجأ إلى النسخ – أن هذه الآية أو هذا الجزء من الآية أو الجملة أو الفقرة قد نسخت أى فقدت حكمها – إلا بيقين .

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وانظر اللؤلؤ والمرجان أحاديث رقم ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ .

(٢) رواه البخارى عن المقداد بن معديكرب رضى الله عنه عن النبى ﷺ .

وبعض الناس جاء فى عصرنا وقال : القرآن قال :﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] وهذه القوامية كانت فى الزمن الماضى حينما لم يكن للمرأة استقلال اقتصادى . أما الآن وقد أصبحت المرأة تعمل موظفة ومعلمة وطبيبة إلى آخره ، فلا ينبغى أن يكون الرجل قواما عليها ،ويقولون أيضاً إن ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١ . ١٧٦] هذا كان فى الزمن الماضى والآن تغير الوضع ..

وكلامهم هذا يعنى أن القرآن كتاب موقوت بزمن معين يحق للناس أن ينسخوه بعد هذا الزمن . وهذا هو الباطل الذى ينبغى أن يرفض كل الرفض ، ويقاوم بشدة لأن كتاب الله هو الكتاب الباقى للزمن كله [١] .

إنه عام من حيث الزمان ومن حيث المكان ، فلم ينزل للبيئة العربية ولا البيئة الشرقية خاصة ، إنما نزل لكل البيئات ولكل العالم شرقيه وغربيه ، عجميه وعربيه ، ولكل الأجناس ولكل الألوان ولكل الطبقات ، فهو كتاب العالم كله قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] .

ومن أجل هذا لم يعرض القرآن لتفاصيل تتعلق بالبيئات ، ولم يعرض لأشياء معينة تقيد الناس ،ومن ذلك أمره بالشورى كمبدأ وقاعدة ، أما كيفية الشورى ومن الذين يستشارون ، وفيم يستشارون ، وما الكيفية التى نختار بها أهل الشورى . فلم يعرض القرآن لذلك ، حتى لا يكون بيئيًّا وموقوتًا ، إنما تركت للمسلمين ليجتهدوا بحسب المصالح التى تتحقق لهم فى مختلف العصور ، ومختلف البيئات ، ومختلف الأحوال والظروف .

والقرآن ليس كتاباً فى اللاهوت ولكنه كتاب للحياة ، حتى إننا نجد أطول

---

(١) جرى هذا الكلام على ألسنة بعض الكتاب والصحفيين من أمثال أحمد بهاء الدين ونوال السعداوى التى تمادت فى دعاواها الباطلة إلى أن نادت ولازالت تنادى بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة حتى فى تعدد الزوجات .

آية فيه نزلت فى تنظيم شأن من شئون الحياة ، وهو كتابة الديون ، وهذه الآية هى آية المداينة] [البقرة : ٢٨٢] ومن قرأ سورة مثل سورة البقرة وجد فيها العبادات والمعاملات ، والعقائد ، والأخلاق ، والآداب والقصص ، ما يتعلق بالعلم وما يتعلق بالعمل ، وما يتعلق بالعقيدة وما يتعلق بالسلوك ، وما يتعلق بالاقتصاد وما يتعلق بالزكاة والصدقة وما يتعلق بالربا ، وغير ذلك ،ولذا ورد عن ابن عباس أنه قال : لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله ! وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

والقرآن كتاب الإنسان كله ، الإنسان العقل ، والإنسان القلب ، الإنسان الجسم ، والإنسان الروح ، والإنسان الفكر والعاطفة والإرادة ، الإنسان فردا ، والإنسان فى أسرة ، والإنسان فى مجتمع .. والإنسان طفلاً ، والإنسان شابًا ، والإنسان شيخًا .. فهو يصحب الإنسان فى رحلته منذ المرحلة الجنينية : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٣ ، ١٤] ثم يصحبه منذ الطفولة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] إلى أن يصير كهلاً فشيخًا : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ [غافر : ٦٧] ، قال تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ويصحبه إلى أن يموت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون :١٥ ، ١٦] ، ﴿ ثم أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أنشرَهُ ﴾ [عبس : ٢١ ، ٢٢] .

رابعا : على من يريد تفسير القرآن أن يتمكن مما لابد منه من أدوات التفسير وآليات الفهم ، وأول هذه الأدوات والوسائل (اللغة) وما يتعلق بها ، فالقرآن كتاب عربى كما جاء فى القرآن : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف : ٢]،﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر: ٢٨] ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥] .

ولابد لمن يريد أن يفهم القرآن الكريم ويفهمه لغيره : أن يتضلع فى هذا

اللسان العربى ، ويتمكن منه ، ويصبح ذا ملكة فى هذا اللسان تشبه ملكة العربى الأصيل المتمكن الذوَّاقة ، ولذا فلابد له أولاً من (علم اللغة) ومفرداتها ودلالاتها ، وفى هذا يرجع إلى المعاجم ويستفيد منها ، ولكن المعاجم أحيانا قد لا تكفى ولا تشفى ، لأنها تذكر فى بعض الأحيان اللفظ معرفًا بضده ،كأن تعرف الحياة بأنها مقابل الموت، وتعرف الموت بأنه مقابل الحياة ، وقد تذكر المعاجم ما يختلف فيه أهل الاختصاص فتحير القارىء ولا تهديه ، وهذا يتطلب أن يكون للإنسان حس لغوى ومعرفة يستطيع بها أن يرجح بين الاحتمالات المختلفة إذا اختلف أهل اللغة .

فمعرفة المعانى والمفردات مطلوبة جدًّا لأن لها – من اسم وفعل وحرف – دلالات مختلفة حقيقية أو مجازية ، واللفظ قد يتطور من عصر إلى عصر ،ونحن ملزمون بأن نفهم اللفظ فى عصر نزول القرآن ، وقد ذكر الإمام الغزالى أن بعض الألفاظ تتبدل مفاهيمها كأسماء بعض الأشياء (١) فكلمة (الحكمة) فى القرآن تختلف عنها فى الاصطلاح ، وكلمة (التوحيد) غير كلمة التوحيد عندما اصطلح عليه المتكلمون على معنى معين ، فلا ينبغى أن نسقط المصطلحات الحادثة أو المعانى الطارئة على ألفاظ القرآن ، ونحن نفسره ، ولابد أن نحذر من هذا ، فلفظ التأويل له معنى فى اللغة – مثلا – وأصبح له معنى عند المتكلمين وعند الأصوليين .

وفى عصرنا أصبح لبعض الكلمات معان تعارف عليها الناس لا ينبغى أن نسقطها على الألفاظ القرآنية ، فعلى سبيل المثال ، لا ينبغى أن نقول إنَّ (عادا) كانت عندهم (مصانع) مثل مصانعنا العصرية ، لأن القرآن قال على لسان هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[الشعراء : ١٢٨ ، ١٢٩] .

فكلمة مصانع هذه تعنى أماكن اللهو أو القصور المشيدة أو الحصون .

وكذا كلمة سياحة لها معنى معين فى عصرنا لا ينبغى أن نسقطه على

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالى الجزء الأول بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ص ٣١ وما بعدها .

لفظ القرآن فى مثل قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ ﴾ [التوبة : ١١٢] فالسياحة فى لفظ القرآن هذا تعنى الصيام أو الهجرة وغيرها .

وهناك ممن كتب فى التاريخ من قال : إن العرب كانوا يكرهون بناتهم على البغاء واستدل على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور : ٣٣] وهذا خطأ شديد ، ولم يحدث ما ادَّعاه الكاتب فى العرب من قبل ، فالفتيات فى الآية : الإمـاء أو الجوارى أوملك اليمين . ولو أنه نظر فى بقية سور القرآن الكريم لعلم هذا المعنى ولتبينه بوضوح يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء : ٢٥] أى من الإماء .

وبعض الناس ذهب إلى أن حواء خلقت أولاً وأن آدم خلق منها ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] قال : لو كان المقصود : ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ، لقال : وخلق منها زوجته ،ولكنه قال : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى آدم ، وهذا جهل بمعنى كلمة « زوج » فى لغة العرب وفى لغة القرآن الكريم التى تعنى المرأة أو الرجل . فالرجل زوج والمرأة زوج ، ولذلك قال الله تعالى لآدم :﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنت وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[البقرة : ٣٥ ، الأعراف : ٩] وقال سبحانه : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١] ولم يقل زوجات : لأن كلمة زوجات استعملها الفقهاء على لغية من اللغيات ، لكى يفرقوا بين الكلام عن الرجل والكلام عن المرأة فى الحقوق وغيرها ، لكن الواقع أن لغة العرب تجعل كلاً من الرجل والمرأة زوجا ،وأصل الزوج ضد الفرد وكأن كلاً منهما يحمل بين طيات نفسه شخصية الآخر ، فهما زوج فى فرد أو فرد فى زوج ، وهذا من أسرار التعبير العربى .

ولابد أيضا من معرفة علوم اللغة مثل (علم النحو) الذى يتعلق بالإعراب والبناء وتغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها إنْ حقيقة أو تقديرا ، وهذا العلم لابد منه حتى لا يضل الإنسان ،ويفهم الكلام على غير وجهه الصحيح ،كما يفهمه العوام ، وذلك مثل أن يفهم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] على أن الله سبحانه هو الذى يخشى العلماء والحقيقة أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى (١) فلفظ (العلماء) ، فى الجملة فاعل ومثل أن يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٣٤] أن إبراهيم عليه السلام امتحن ربه ، والحقيقة أن الله تعالى هو الذى ابتلى إبراهيم ، لكن التقديم والتأخير أوهم العامة بمثل هذا الفهم .

لذا لابد لمن يريد أن يفهم القرآن أن يعرف النحو وأن يعرف الإعراب وأن يعرف الأسماء والأفعال والحروف وأسماء الإشارة ودلالاتها ، والضمائر ومرجع الضمائر وقد أشرت معكم إلى قوله تعالى :﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾التى يستدل بها بعض الناس على أن المصحف لا يمسه إلا طاهر ، وبالنظر إلى مرجع الضمير نجد أن الآية تقول :﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ*لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٥ : ٧٩] فهل يرجع الضمير فى قوله « يمسه » إلى الكتاب المكنون أم إلى القرآن الكريم ؟ فإذا كان مرجع الضمير إلى القرآن الكريم فلا يمسُّه إلا المطهرون وإذا كان مرجع الضمير إلى الكتاب المكنون – وهذا هو الأرجح لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يصرفه عن ذلك صارف – فالمعنى أن الكتاب المكنون لا يصل إليه إلا الملائكة ، ولا تستطيع الشياطين أن تذهب إليه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ*وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[الشعراء:٢١٠، ٢١١] فمعرفة مرجع الضمير مهمة لبيان الحكم .

---

(١) قرأ بعضهم برفع لفظ الجلالة على أنه الفاعل الذى تقع منه الخشية للعلماء كنوع من التشريف لهم وهى قراءة شاذة يروج لها بعض أصحاب الطرق الصوفية .

وإعراب الكلمة غاية فى الأهمية ، فحينما يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] نجد أن إعراب كلمة كافة له دخل فى بيان المعنى المراد ، فهى (حال) ولكن من أى شيء ؟ هل هى حال من الفاعل أو حال من المفعول به ؟ كما تقول : لقيت محمداً مبتسماً ، فمن المبتسم : أنت أم هو ؟ وهنا لا نعرف صاحب الحال . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ هل الحال – كافة – هى من الفاعل – واو الجماعة فى وقاتلوا – فيكون المعنى تجمعوا على قتال المشركين كما يتجمعون على قتالكم ؟ أم أن الحال – كافة – هى من المفعول به – المشركين – فيكون المعنى قاتلوا كل المشركين كما يقاتلون كل المسلمين ؟ وهذا المعنى الأخير يستدل به من قال إن هذه الآية هى آية السيف أو تدل على السيف ؛ لأنها تطالب بقتال المشركين جميعاً أيًّا كان وضعهم . فمن المهم إذن أن يتسلح من يريد فهم القرآن أو تفسيره بمعرفة علم النحو ، وأن يتضلع فى هذا العلم ، فإن له فوائد كثيرة .

وعلم الصرف وهو العلم الذى يتعلق ببنية الكلمة ، وهذا أيضاً له دخل فى الدلالة على المعنى فمثلاً فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] نجد كلمة محيض – وهى على وزن مفعل – تحتمل أن تكون مصدراً ميميًّا بمعنى الحيض أى نزول الدم ، أو اسم مكان أى مكان الحيض فاعتزلوا النساء فى مكان الدم هذا ، أو فى فترة نزول الدم إذا كانت اسم زمان .

ونجد قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ بالتخفيف أى بمجرد انقطاع الدم ، وطهرت المرأة بمعنى انقطع عنها الدم وجف ، وهذا يعنى أن الاغتسال ليس شرطًا ، أو ﴿ حَتَّى يطّهّرن ﴾ بالتشديد تدل على زيادة المعنى حيث إن مبنى الكلمة قد زاد ، فلابد أنها تدل على شيء آخر ، وهو أن تغتسل المرأة ، كما قيل : إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وهذه المعانى يعين على فهمها علم الصرف .

وأيضا دلالة الجموع مثل ما قاله بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا

تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء : ٥] ، من أن السفهاء هم النساء والصبيان (١) فلا ينبغى أن يعطى الرجل ماله لامرأته ، وقد رد المحققون من المفسرين هذا الكلام فقالوا : السفهاء جمع سفيه وهو جمع تكسير على وزن فعلاء للذكور العقلاء . ولو كان المراد النساء لجاء الكلام بجمع سفيهة وهى تجمع على سفائه أو سفيهات أى جمع تكسير أو جمع مؤنث سالم ، لكن لا تجمع سفيهة على سفهاء . فهذا غير صحيح ، فضلاً عن أن السفه اسم ذم ، ولا تذم المرأة على أنوثتها ، ولا يذم الصبى علي صغره ، وفى سورة البقرة : ﴿ فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فجعل الصغير من جنس الضعيف لا من جنس السفيه .

ويحتاج المفسر أيضاً إلى (علم البلاغة) علم المعانى والبيان ، ليعرف لماذا قدم هذا؟ولماذا أخر هذا؟وماذا يفيد الحصر؟والمسند والمسند إليه؟وإذا كان كلاهما معرفة،فماذا يفيد هذا التركيب؟ لأن هذه الأشياء لها دلالاتها ، فالتقديم مثلا له دلالته كما فى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] حيث أفاد التقديم هنا القصر أى لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك ، ولو أنه قال : نعبدك ونستعينك لما أفادت القصر .

ولهذا نجد أن معرفة علوم اللغة العربية المختلفة أمر لابد منه ، إذ كيف يفقه من لا يعرف أسرار العربية دلالة التركيب كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور : ٣٣] فيظن أن ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ شرط والحقيقة أن هذا قيد لبيان الواقع ، كأنه ينكر على هؤلاء السادة الذين يجبرون إماءهم ومواليهم على التكسب بهذا المنكر . فيقول : الأمة تريد التحصن وأنت تكرهها على البغاء ؟!! ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران:١٣٠]

---

(١) هكذا روى عن ابن عباس وابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك ، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة هم النساء .. انظر ابن كثير ج ١ ص ٤٥٢ تفسير قوله ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ .

حيث أراد بعض الناس أن يجعله قيداً فى الربا ويقول : القرآن لم يحرم إلا الأضعاف المضاعفة أما النسب المئوية البسيطة فهذا ليس أضعافًا مضاعفة !! .

ولو أخذنا الكلام على ظاهره – وعلى طريقتهم هذه – لكان الربا المحرم هو الذى يعادل ستمائة فى المائة (٦٠٠ ٪) لأن كلمة أضعاف جمع ،وأقل الجمع ثلاثة ، فإذا كانت الأضعاف مضاعفة يكون أقلها ست مرات ، بما يعنى أن الربا لا يكون محرما إلا إذا كان أدناه ستة أضعاف .. وهذا غير معقول ، إنما المراد من قوله تعالى ﴿ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ تبشيع الواقع وليس القيد كما تقول : إياكم والمخدرات سريعة المفعول ، أيعنى هذا أن المخدرات غير السريعة فى مفعولها جائزة ؟ لا .. إنما المراد تبشيع الواقع الذى أصبح ملموساً عند الناس .

ومن أسف أن كثيراً ممن يتعالمون فى عصرنا ، ويدّعون أنهم يقرأون القرآن قراءة معاصرة وقراءة جديدة ، لم يتعمقوا فى لغة العرب ، ولم يدرسوا علومها كما ينبغى .

ومما يعين على هذا قراءة المباحث اللغوية في علم أصول الفقة [1] فقد عنى هذا العلم بالدراسة اللفظية واللغوية ، ولذلك نجد فيه : الخاص والعام ، والأمر والنهى ، والمنطوق والمفهوم ، والمطلق والمقيد ، ودلالة الإشارة ودلالة العبارة .. بحوث ودراسات لفظية ، فعلم أصول الفقه علم استنباط من نصوص القرآن والسنة ، وهى نصوص عربية ، لذا نجد فيه تأصيلاً للأصول ،وتقعيداً للقواعد ، فلا بد من الاستفادة مما كتبه الأصوليون والتمكن منه ، لحاجة ذلك الشديدة عند الترجيح فى المسائل الخلافية .

---

(١) علم أصول الفقه علم يتعرف منه تقرير مطلب الأحكام الشرعية العملية وطرق استنباطها ومواد حججها واستخراجها بالنظر .. كما قال السخاوى إن أول من صنف فى أصول الفقه هو الإمام الشافعى ، ذكره الأسنوى فى التمهيد وحكى الإجماع فيه وهو شيخ المحدثين والفقهاء ، ومبادئ هذا العلم مأخوذة من العربية وبعض من العلوم الشرعية ، ومن الكتب المهمة فى هذا العلم : الرسالة للشافعى وكتاب إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكانى ، وكتاب البرهان لإمام الحرمين الجوينى وكتاب المستصفى للغزالى وغيرها من الكتب .. انظر أبجد العلوم للقنوجى المجلد الثانى ص ٧٠ وما بعدها .

ومن أدوات تفسير القرآن المهمة وآليات فهمه : أن يتضلع المفسرفى علوم السنة ، وقد قلنا من قبل : إن من طرق تفسير القرآن تفسيره بالسنة ، فمن لا يعرف السنة ولا يستطيع أن يميز بين المقبول منها والمردود ، وبين الصحيح والضعيف،وبين المرسل والمسند، وبين الموقوف والمقطوع والمرفوع ، وغير ذلك .. لا يستطيع يقيناً أن يفسر القرآن ، فإنه سوف يداخله الهوى ، بحيث يقبل من السنة ما يحلو له ويرد مالا يحلو له ، بدون قاعدة وبدون معيار .

فلا بد لمن يفسر القرآن أن يكون على علم بالسنة ، إلى جانب الأدوات الأخرى ، ولذلك نجد كبار المفسرين كانوا علماء فى السنة ،كشيخ المفسرين أبى جعفر بن جرير الطبرى الذى كان إماماً فى اللغة ، وكان إماماً فى القراءات . وكان صاحب مذهب فى الفقه وله أتباع ،وكان إماماً فى التاريخ كما نعرف ، فهو صاحب التاريخ المعروف (١) وكان إماما فى الحديث وعلومه ، وكتابه فى هذا – تهذيب الآثار – الذى لم يصلنا للأسف ، من أعظم ما كتب .

وكذلك الإمام ابن كثير وغيرهما .

ولا أقل من أن يملك المفسر مبادىء هذا العلم الشريف إذا لم يحط به كله ، فهذا يعينه على الرجوع إلى المصادر ،والعالم هو الذى يعرف كيف يرجع إلى المصادر ويعرف الأصلى منها والفرعى ، والأساسى منها والهامشى ، والموثق وغير الموثق .

ثم ليحذر من يريد أن يفسر القرآن من الأحاديث الواهية والموضوعة ، وقد ورد عن الإمام أحمد أنه قال : ثلاثة لا أصل لها : المغازى والملاحم والتفسير .. وقال أصحابه : يعنى أن معظمها ليس متصل الأسانيد ولا مرفوعها ، أى ليس لها أسانيد متصلة مسندة ، والمرفوع منها قليل ، والصحيح منها أقل (٢) .

وليحذر أيضاً من الإسرائيليات التى دخلت كتب التفسير ، وامتلأت بها

---

(١) كتاب الإمام الطبرى فى التاريخ مطبوع تحت عنوان « تاريخ الطبرى تاريخ الأمم والملوك » .

(٢) انظر ابن تيمية دقائق التفسير الجزء الأول ص ٥٧ .

بطون الكتب ، حتى لا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير من هذه الإسرائيليات التى ضللت الأمة ، وخصوصاً فيما يتعلق بقصص الأنبياء ، وقصص السابقين عموماً ، وما يتعلق بخلق السموات والأرض ونحو ذلك ، وما يتعلق بالغيبيات وأمور الآخرة ، وأباطيل كثيرة رويت عن أهل الكتاب ، وبعضها غير موجود فى كتب أهل الكتاب ، ولكنها ربما تكون مرويات شعبية شائعة عندهم ، أو تكون من وضع بعض الذين أرادوا أن يضللوا المسلمين ، وأثبتها بعض المفسرين فى كتبهم دون أن يبين ضعفها ،ومنهم من بيَّن ذلك ، مثل الحافظ ابن كثير الذى يذكرها أحياناً قليلة فى صفحات طوال ثم يقول : وهذا حديث منكر أو باطل !! .

وهذا يرجع إلى أن أهل الكتاب لا يقولون بعصمة الأنبياء ، كما نقول نحن المسلمين . فمن يقرأ قصص داود وسليمان وأنبياء آخرين فى التوراة وأسفارها ، يخرج بانطباع : أن هؤلاء الأنبياء ليسوا قدوة يؤتسى بهم ،ويهتدى بهديهم ،ومن ذلك ما ذكر عن يوسف عليه السلام أنه تمكن من المرأة ونظر إلي أبيه.. وغير ذلك ، وهذا ترده الآيات القرآنية والسياق القرآنى فى قصة يوسف ، فحينما راودته امرأة العزيز عن نفسه قال : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] وهذا موقف قوى ،وحينما أتت المرأة بالنساء ، ورتبت لهن حفلاً وخرج عليهن يوسف،وقطعن أيديهن وقلن:حاش لله، قالت : المرأة بإصرار ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [يوسف : ٣٢] فالقرآن صريح فى موقف يوسف كان موقف الإباء والرفض المطلق ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] وقد اعترف النسوة بذلك أمام الملك ﴿ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ [يوسف : ٥١] فليس هناك أدنى شك فى نصاعة موقف يوسف ، ولكن الإسرائيليات التى امتلأت بها كتب التفسير شوَّهت جمال موقف يوسف عليه السلام .

وقد نبه حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس على هذا الأمر فقال : « إنهم

لا يسألونكم عما فى كتابكم ، وقد أنزله الله عليكم غضًّا طريًّا ، فكيف تسألونهم عن كتابهم ؟! » (١) .

ولهذا ينبغى الإعراض عن هذه الإسرائيليات ، فإنها كثيراً ماتكون فى بحوث لا معنى لها كالبحث فى اسم مؤمن آل فرعون ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر : ٢٨] والله سبحانه وتعالى ذكره لنا بوصفه ، فهو رجل ، وهو مؤمن ، وهو من آل فرعون ،وهذا هو المهم ،وكالبحث فى اسم أم موسى وأخت موسي ، وهذا مما لا يفيد ، فالعلم به لا ينفع والجهل به لا يضر .

وليحذر من يريد أن يفسر القرآن أيضًا من كثير من الروايات التى تروى عن مفسرى السلف ، وقد تكون عن بعض الصحابة أو عن بعض التابعين ممن اشتهروا بالتفسير ،كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغيرهم ، وهذه الروايات قد تكون مردودة وليس لها سند صحيح ، ومع هذا تنقل ، مثل ما ذكر فى قصة زيد بن حارثة رضى الله عنه إذ زوجه الرسول ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها ، ثم ساءت العلاقة بينهما وانتهت بطلاقها كما أراد الله عز وجل ، حيث جعل بعض المفسرين منها قصة درامية غرامية لا تليق بالرسول ﷺ ، فزينب ابنة عمته ، وقد زوجها لأحب الناس إليه زيد بن حارثة الذى ذكره القرآن باسمه من بين الصحابة : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فلما طلقها زيد ، تزوجها الرسول ﷺ وقد ذكر القرآن علة هذا الزواج ، وهى إبطال التبنى بالفعل بعد إبطاله بالقول ، وقد نبَّه العلامة ابن كثير على ضعف الروايات الواردة فى هذا الشأن (٢) .

---

(١) الحديث فى البخارى عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : « كيف تسألوا أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث تقرءونه محضًا لم يشب » وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب . وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

(٢) انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم الجزء الثالث ص ٤٩١ .

ومثل هذا ما ذكر أيضًا فى قضية الغرانيق من أن الرسول ﷺ كان يقرأ سورة النجم فلما بلغ منها قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى ٠٠ ﴾ (١) [النجم:١٩ ، ٢٠ ، ٢١] ألقى الشيطان على لسانه فقال: « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ثم استدرك ٠٠ وهذا كلام غير معقول ولا يجوز ، فكيف يذم تلك الآلهة ثم يمدحها فى آن واحد ؟! ٠

ومن أسف أن بعض العلماء قَبِلَهَا – لتعدد الروايات – قال : « إن طرقها ضعيفة لكن بعضها يقوى بعضًا » ، وهذا الكلام لا يسلم من الرد ، ففى بعض الأحيان كثرة طرق الضعيف تشكك فيه ٠

وينبغى الحذر أيضًا من الأقوال الضعيفة ، والآراء الفاسدة ، فإنها لبشر ، والبشر غير معصومين ، وقد قال الإمام مالك وغيره من أئمة السلف :كل واحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبى ﷺ وهذا ينطبق على كل إنسان حتى وإن كان من كبار المفسرين ٠ فحينما يقول بعضهم عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : ٣ ، وانظر فى تفسيرها] إنها ليلة النصف من شعبان،فهذا يتعارض مع قوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القَدْرِ ﴾[القدر: ١] وليلة القدر بالنص والإجماع فى شهر رمضان ، وهى التى نزل فيها القرآن ، فكيف يقال : إن القرآن نزل فى ليلة النصف من شعبان ؟! لا شك أن هذا الرأى مردود ، فالقرآن نزل فى ليلة القدر ، وهى نفسها الليلة المباركة ٠

وحينما يقول بعض كبار المفسرين عند تفسير قول الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] إن هذا فى أهل الكتاب (٢) ، فهـذا كلام فيه نظر ؛ لأن هـذه الآيات وإن كانت

---

(١) ابن كثير ج ٤ ص١٣٧ ٠

(٢) انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم الجزء الثانى ص ٦٠ و٦١ بعدها ٠

فى أهل الكتاب ، إلا أنها تشمل المسلمين ، وقد جاءت بلفظ عام ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم ﴾ .

وقد كتب بعضهم – للأسف – فى بعض الصحف السيَّارة : أن هذا الكلام لا ينطبق على المسلمين ، فهو خاص باليهود والنصارى ليُحَكِّموا التوراة والإنجيل ، وهذا شيء عجيب يجعلنا نتساءل : أمَنْ ترك الحكم بالتوراة يكون كافرًا أو ظالمًا ، ومن ترك الحكم بالإنجيل يكون فاسقًا ، ومن ترك الحكم بالقرآن – أعظم كتب الله وأخلدها – لا يحكم عليه بكفر ولا بظلم ولا بفسق ؟!! أكان القرآن دون التوراة والإنجيل ؟! أم أن الله تعالى يكيل بكيلين ، فإذا ترك اليهود كتابهم فلم يحكموا به ، فهم كفرة وظلمة ، وإذا ترك النصارى كتابهم فلم يحكموا به ، فهم فسقة ، أما إذا ترك المسلمون كتابهم فلم يحكموا به ، فليسوا بكفرة ولا ظلمة ولا فسقة ؟! إن هذا أمر يخالف النقل ويناقض العقل ، ولذا قال سيدنا حذيفة « فيمن قال مثل هذا الكلام – ويبدو أن هذا الكلام ظهر من قديم – : « نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كانت لهم كل مرة ، ولكم كل حلوة ! » أى إذا تركوا كتابهم كفروا وظلموا وفسقوا ، وأنتم لا شيء عليكم إن تركتم كتابكم .. ويأبى الله هذا ، فعدله واحد ، وكتبه إنما أنزلت ليحكم بها الناس ، والقرآن لم ينزل لكى يتبرك به بتعليق آياته على الجدران أو بحمله حرزًا من العين والجن وغير ذلك ، وإنما أنزل ليحكم ويضبط مسيرة الحياة بأحكام الله ، ومن قال غير هذا – وإن كان من كان منزلة – فكلامه غير مقبول .

ومن غير المقبول أيضًا مثل كلام الإمام الطبرى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء : ٣٤] ، يقول : واهجروهن فى المضاجع أى قيدوهن – أو اربطوهن – بالهجار – أى الحبل الذى يربط به – وهذا خروج عن ظاهر اللفظ ، فالهجر كما هو معروف ومنصوص عليه هجر فى المضاجع ، ولذلك قال الزمخشرى عمّن قال هذا : هذا تفسير الثقلاء ، وله الحق فى هذا ، ويدلنا هذا على أن أحدًا ليس له العصمة بعد رسول الله ﷺ .

وبعد ..

وبعد فهذه المقدمات نضعها إن شاء الله بين أيدينا وأمام أعيننا ، حينما نبدأ مسيرتنا مع كتاب الله عز وجل ، مستفيدين – إن شاء الله – من كل تفسير لكتاب الله سبق ، وإذا كان من سؤال : كيف تفسر ؟ وما هو منهجك ؟ وهل هو تفسير قديم أو جديد ؟ وهل هو تفسير فقهى أو كلامى ؟ بالرأى أو بالمأثور؟ أقول وبالله التوفيق : « إنه تفسير يأخذ من المأثور ، ويستخدم الرأى ، تفسير يجمع بين الرواية والدراية ، بين العقل والنقل ، بين الأصالة والمعاصرة ، يهتدى بتفسير السلف ، ومعارف الخلف ، وعلوم العصر ، ولكنه يمحص ويرجح ، وليس أسيرا لأحد ولامقلدا لأحد ، يستفيد من كل التفاسير الماضية ، ولكنه لا يخوض ويتوسع فى اللغويات ولا فى الفقهيات ولا فى الكلاميات بحيث يخرج تفسير القرآن عن مقصده وعن هدايته . بل يهتم بإبراز مقاصد القرآن ، وهداية القرآن ، وعظمة القرآن ، وروعة القرآن ، وهو تفسير تحليلى وموضوعى ، يتتبع كلمات النص القرآنى ويحللها ويعايشها ، ويتتبع المعنى فى القرآن الكريم » ويضم بعضه إلى بعض ، فخير مايفسر القرآن بالقرآن ، ثم بالسنة الصحيحة .

وهذا ما سأحاول السير عليه ، سائلا الله عز وجل أن يلهمنى الصواب ، وأن يفتح علىّ بفتوح من عنده ، فكتاب الله معطاء ،ولا تنقضى عجائبه .

اللهم فقهنا فى كتابك ، واجعلنا من أهل القرآن ، أهل الله وخاصته ، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا وذهاب همنا وغمنا .. اللهم آمين وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

* * *